

التَّعَصُّبُ الْمُضَادُّ / التَّسَامُحُ جَدَلِيَّةٌ (التَّعَصُّبُ)

وَمَظَاهِرُهَا فِي الْمَذَاهِبِ النَّحْوِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ الْقَدِيمَةِ

♦ أ.د. كيان أحمد حازم (*)

يَسْعَى هَذَا الْبَحْثُ إِلَى إِبْرَازِ الدَّورِ الَّذِي اضْطَلَعَتْ بِهِ مَدِينَةُ السَّلَامِ بَغْدَادُ فِي تَخْفِيفِ حِدَّةِ التَّعَصُّبِ الَّذِي احْتَدَمَ قَدِيمًا بَيْنَ نَحْوِيِّيِ الْبَصْرَةِ وَالْكَوْفَةِ وَإِذَابَتِهِ وَصَهْرِ اتِّبَاعِ الْمَذَاهِبَيْنِ التَّعَصُّبِيَّيْنِ الْبَصْرِيِّ وَالْكَوْفِيِّ فِي بَوْتَقَةِ تَسَامُحِيَّةٍ عَلَى أَرْضِ بَغْدَادَ، تَأْمِيلًا لِعَوْدَةِ اضْطِلَاعِهَا بِهَذَا الدَّورِ التَّسَامُحِيِّ وَتَطَلُّعًا إِلَى تَكَرُّارِ مَاثُرَتِهَا فِي نَزْعِ فَتِيلِ التَّعَصُّبِ وَالْعُنْفِ بِكُلِّ صُورِهِمَا وَإِشَاعَةِ رُوحِ التَّسَامُحِ وَالرَّفْقِ بِكُلِّ أَشْكَالِهِمَا.

وَالْمَسَلُّكَ الَّذِي يَسْلُكُهُ الْبَحْثُ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ هَدَفِهِ هُوَ مَسَلُّكَ الْكَشْفِ عَنِ مَظَاهِرِ تَجَلَّتْ فِي سُلُوكِيَّاتِ مُنْتَسِبِيْنَ إِلَى الْمَذَاهِبِ النَّحْوِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، أَيِ الْبَصْرِيِّ وَالْكَوْفِيِّ وَالْبَغْدَادِيِّ، وَشَكَلَتْ مَلَاحِجَ جَدَلِيَّةٍ ثَلَاثِيَّةٍ الْمَظَاهِرِ؛ اسْتَهْلَتْ بِمَظْهَرَيْنِ هُمَا تَعَصُّبٌ وَتَعَصُّبٌ مُضَادٌّ مِنَ الْكَوْفِيِّيْنَ عَلَى الْبَصْرِيِّيْنَ وَمِنَ الْبَصْرِيِّيْنَ عَلَى الْكَوْفِيِّيْنَ، وَانْحَلَّتْ إِلَى مَظْهَرٍ تَوْفِيقِيٍّ ثَالِثٍ هُوَ شَبَهُ تَسَامُحٍ بَيْنَ مُنْتَسِبِيِ الْمَذَاهِبَيْنِ الْبَصْرِيِّ وَالْكَوْفِيِّ تَبَدَّتْ أَمَارَاتُهُ فِي مَا سُمِّيَ الْمَذْهَبُ الْبَغْدَادِيُّ.

(*) جامعة بغداد / قسم اللغة العربية / كلية الآداب

ولا يخفى أنَّ هذه الجدليَّة الثلاثيَّة المظاهر تستهدي جدليَّة مشهورة النَّصَقَت بالفيلسوف الألماني الكبير هيغل Hegel، وعُرِفَت باسم (الديالكتيك Dialectics)، إذ رأى هيغل أنَّ الديالكتيك هو التطُّور المنطقي الذي يُوجِبُ اتِّلافَ قَضِيَّتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْنِ واجتِمَاعَهُمَا في قَضِيَّةٍ ثالثة. فلهذا التطُّور ثلاثة أركان؛ أوَّلها الدَّعوى أو الإيجاب؛ وثانيها نقيض الدَّعوى أو السَّلْب؛ وثالثها التَّركيب وهو التَّأليف بين الرأْيَيْنِ المُتَنَاقِضَيْنِ والجمْعُ بينهما في رأيٍ واحدٍ أعلى منهما^(١). وقد جعل هيغل الديالكتيك منهجَ فلسفته، ومفاده عنده أنَّ كلَّ فكرةٍ تنطوي على تناقضٍ باطنٍ، فالوجودُ ممثلاً يعني إثبات وجودٍ ونفي وجودٍ آخر، فوجودُ التَّفَاحَةِ إيجابٌ لوجودِ هذه الثَّمرة، ونفيٌ لكونها أيَّ ثَمرةٍ أخرى، ولذلك ينبغي أن نقولَ عن الموجودِ إنَّه موجودٌ ولا موجودٌ معاً، فالوجودُ موضوعٌ أو أطروحةٌ، ونفيٌ وجودٍ آخرٍ أي نقيضُ موضوعٍ أو أطروحةٍ، ومركَّبٌ منهما. وهكذا تسيرُ الحَقِيقَةُ الواقعيَّةُ من الموضوعِ أو الأطروحةِ thesis، إلى نقيضِ الموضوعِ أو الأطروحةِ antithesis، ثمَّ إلى مُركَّبٍ منهما synthesis^(٢). فالديالكتيك عند هيغل مبنيٌّ على تقابلِ النقيضين لاستخراج نتيجةٍ جامعَةٍ بينهما.

والمتَّبِعُ لِمَراحِلِ تطوُّرِ النحوِ العربيِّ، ابتداءً بِمَرحَلَتِي (النَّشأة والنُّمو) و(النُّضج والكمال) وانتهاءً بِمَرحَلَةِ (التَّخَيُّر والتَّرجيح) بِحَسَبِ تقسيمِ محمَّدِ الطَّنطاويِّ لِمَراحِلِ تطوُّرِ النحوِ العربيِّ^(٣)، يَجِدُ فيها أركانَ ديالكتيكِ هيغل حاضرةً بِوضوحٍ؛

فطورا (النَّشأة والنُّمو) و(النُّضج والكمال)، اللذان كانا بصريَّين-كوفيَّين، يُمثِّلان الأطروحةَ ونقيضَ الأطروحة؛ وطور (التَّخَيُّر والتَّرجيح)، الذي كانَ بَعْدَديًّا، يُمثِّلُ مُركَّبَهُمَا التَّأليفيَّ أو التَّوفِيقِيَّ.

إذ شَهِدَ طورا (النَّشأة والنُّمو) و(النُّضج والكمال) بُزوغَ فجرِ المذهبِ الكوفيِّ إلى جانبِ المذهبِ البصريِّ الذي كانَ قد مَضَى على ظُهورِهِ الأوَّلِ نحوَ قرنٍ كاملٍ قَبْلَ نَدِيدِهِ الكوفيِّ، بما أسهمَ إسهامًا كبيرًا في تَعزِيزِ حالةِ تَعَصُّبِ الكوفيَّين على البصريَّين نَافِسينَ عَلَيْهِمِ اسْتِنثارَهُم بِوَضْعِ النُّحوِ وحاسِدِينَ لَهُم عَلَيْهِ، وبما يُمكنُ عَدَهُ مُمثِّلًا لِلأطروحةِ في جدليَّةِ هيغل. لِكِنَّهُمَا شَهِدَا، في الوَقْتِ نَفْسِهِ، شِبْهَ انْفِرَادِ الكوفيَّين بِالْحِظْوَةِ والزُّلْفَى والقُرْبِ لَدَى خُلَفَاءِ بَنِي العَبَّاسِ، بما أسهمَ إسهامًا كبيرًا في تَعزِيزِ حالةِ تَعَصُّبِ البصريَّين عَلَيْهِم، وبما يُمكنُ عَدَهُ مُمثِّلًا لِنَقِيضِ الأطروحةِ في الجدليَّة. أَمَّا طور (التَّخَيُّر والتَّرجيح)، فَقدَ شَهِدَ إِسْفَارَ ضُحَى المذهبِ البَعْدَديِّ الذي انمازَ بِخَلْطِ مُنْتَسِبِيهِ بَيْنَ المذهبَيْنِ البصريِّ والكوفيِّ وتَخَيُّرِهِم مِئْهُمَا، وانحسارِ التَّعَصُّبِ بِتَفَاوُتِ بَيْنِ أَصْحَابِهِ، ونُموِّ بُذُورِ التَّسامُحِ النَّسَبِيِّ وإن ظَلَّ مُكْتَنَفًا بِقُوَى تَعَصُّبٍ قَدِيمٍ تُحاولُ الرُّجُوعَ بِبَعَادَةِ النُّحوِيِّينَ إلى طُورِي التَّعَصُّبِ المَقِيَّتَيْنِ، والعُودَةَ بِهَذَا الطُّورِ التَّوفِيقِيِّ التَّسامُحِيِّ لِيشْكَلَ طُورَ أطروحةٍ تَعَصُّبِيَّةٍ أوَّلَ يَسْتَتْبِعُ طُورَ نَقِيضِ لَهَا تَعَصُّبِيٍّ آخَرَ، في مُحَاوَلَةِ تَكَرُّارِ لِلجدليَّةِ الهِغليَّةِ. وقد يُعْتَرِضُ على مَسَعَانَا هُنَا إلى اسْتِهادِا جَدليَّةِ هيغلِ الثَّلَاثِيَّةِ وتطبيقاتِها في مِيدَانِ يُظَنُّ أَنَّهُ غَرِيبٌ عِنْدَنا. فَجَوَابُنَا أَنَّ هَذِهِ الجَدليَّةَ قَدْ اكَتَسَبَتْ عِبْرَ قُرُونِ أَهْلِيَّةٍ جَعَلَتْهَا قابِلَةً لِلتَّطْبِيقِ في مِيدَانِ مُخْتَلَفَةٍ قَدْ تَبَدُو بِعِيدَةٍ عَن مِيدَانِهَا الأَصْلِ الذي وُلِدَتْ فِيهِ، أي الفَلَسَفَةِ، لِكِنَّ شَيْئًا مِنَ التَّأْمَلِ

(١) يُنظَر: صليبا، جميل، المُعْجَمُ الفَلَسَفِيُّ: ٣٩٣/١.

(٢) يُنظَر: بدوي، عبد الرَّحْمَنِ، مَوْسُوعَةُ الفَلَسَفَةِ: ٤٨٨/١.

(٣) يُنظَر: الطَّنطاوي، محمَّد، نَشأة النُّحوِ وتاريخِ أَشْهُرِ النُّحَاة: ٢٧٣٧.

يَقْفُنَا عَلَى أَنَّهَا امْتِدَادٌ لَهُ وَعَيْرٌ مُنْبَتَّةٌ الصَّلَةِ بِهِ. وَيَكْفِي فِي هَذِهِ الْعُجَالَةِ التَّمثِيلُ بِمِيدَانٍ وَاحِدٍ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ اسْتُعْمِلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْجَدَلِيَّةُ بِكِفَايَةِ عَالِيَةِ لِتَحْقِيقِ نَتَائِجٍ مَا كَانَ لِيُتَوَصَّلَ إِلَيْهَا لَوْلَا الْاسْتِعَانَةُ بِهَا. وَأَعْنِي بِهَذَا الْمِيدَانِ مِيدَانَ الْكِتَابَةِ التَّفْسِيرِيَّةِ expository writing، إِذْ اسْتُعْمِلَتْ جَدَلِيَّةٌ هِيْغَلُ اسْتِرَاطِيْجِيَا تَنْظِيْمِيَّةً لَهَا، وَلَا سِيَّمَا فِي فَرَنْسَا الَّتِي دُرِّسَتْ فِيهَا هَذِهِ التَّقْنِيَّةُ بِوَصْفِهَا مَبْدَأً تَنْظِيْمِيًّا أَسَاسِيًّا فِي الْمَدَارِسِ، يَقُولُ مُؤَلِّفُ الْكِتَابِ الَّذِي عُنوانُهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سِتُّونَ مِليونَ فَرَنْسِيٍّ عَلَى خَطِّهَا؛ لَمْ نُحِبُّ فَرَنْسَا، لَكِنْ لَا نُحِبُّ الْفَرَنْسِيَّيْنَ؟: "يَتَعَلَّمُ الْفَرَنْسِيُّونَ تَقْيِيمَ الْفَصَاحَةِ وَمُمَارَسَتَهَا فِي زَمَنِ مُبَكَّرٍ. إِذْ يُدْرَسُ الطُّلَّابُ، مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ لَهُمْ فِي الْمَدْرَسَةِ، أَنْ يُقَدِّمُوا خُطَطًا لِمَقَالَتِهِمُ الْإِنْشَائِيَّةَ، وَيُعْطُونَ الدَّرَجَاتِ اسْتِنَادًا إِلَى ذَلِكَ. وَكَانَتْ بَنَى مَقَالَتِهِمْ تِلْكَ تَتَغَيَّرُ تَبَعًا لِتَغْيِيرِ الْخُطِّطِ. وَيُعَلِّمُ الصَّغَارُ أَنْ يُعْبَرُوا عَنْ تَقَدُّمِ سَيْرِ أَفْكَارِهِمْ، وَلِذَلِكَ تَجِدُهُمْ حِينَ يَكْبُرُونَ يَتَّبِعُونَ فِي تَفْكِيرِهِمْ أَنْمُوذَجَ (الْأُطْرُوْحَةَ / thesis / نَقِيضِ الْأُطْرُوْحَةَ / antithesis / التَّوْفِيقِ / synthesis). فَإِذَا اسْتَمَعْتَ إِلَى الْفَرَنْسِيَّيْنَ وَهُمْ يُنَاقِشُونَ أَيَّ مَوْضُوعٍ، وَجَدْتَهُمْ جَمِيعًا يَتَّبِعُونَ هَذَا الْأَنْمُوذَجَ اتِّبَاعًا وَثِيْقًا؛ إِذْ يَعْضُونَ فِكْرَةً، وَيَسُوقُونَ الْإِعْتِرَاضَاتِ الْمُحْتَمَلَةَ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَخْلُصُونَ إِلَى ذِكْرِ اسْتِنْتِجَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ" (٤).

وَعُمُقُ الْأَثَرِ الَّذِي خَلَفَتْهُ جَدَلِيَّةُ هِيْغَلُ دَعَا بَعْضَ الْمُفَكِّرِينَ إِلَى جَعْلِهَا الْمَنْطِقَ الَّذِي يَحْكُمُ فَهْمَنَا لِلْأَشْيَاءِ عُمُومًا، فَقَدْ ذَكَرَ الدُّكْتُورُ عَلِيُّ الْوَرْدِيُّ أَنَّ الْمَنْطِقَ الْاجْتِمَاعِيَّ الْحَدِيثَ "يُدْعَى (مَنْطِقَ

(4)Nadeau, JeanBenoit and Barlow, Julie, Sixty Million Frenchmen Can't Be Wrong: Why We Love France But Not The French, p. 62.

التَّنَاقُضِ)؛ فَكُلُّ شَيْءٍ يَحْمِلُ نَقِيضَهُ فِي صَمِيمِ تَكْوِينِهِ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يَنْمُو حَتَّى يَنْمُو نَقِيضُهُ مَعَهُ" (٥). عَلَى أَنَّهُ اسْتَدْرَكَ، فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَذَكَرَ أَنَّ مَا سَمَّاهُ (الْمَنْطِقَ الْاجْتِمَاعِيَّ الْحَدِيثَ) "لَيْسَ حَدِيثًا بِكُلِّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ؛ فَقَدْ بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَى وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ. يُرَوَى عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عِنْدَ رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا" (٦) (٧). فَقَدْ عَادَ الْوَرْدِيُّ بِهَذِهِ الْجَدَلِيَّةِ إِلَى أُصُولِ الْإِسْلَامِ الْأُولَى، مُحَاوِلًا بِذَلِكَ إِكْسَابَهَا مَزِيدَ تَرْسِيخٍ وَتَوْطِيدٍ.

وَاقْتَضَتْ طَبِيعَةُ الْبَحْثِ تَقْسِيمَهُ عَلَى مَبْحَثَيْنِ مَسْبُوقَيْنِ بِمُقَدِّمَةٍ؛ فَأَمَّا الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ فَمُخَصَّصٌ لِطَوْرِي النَّحْوِ اللَّذِينَ يُمْتَلَّانِ حَالَتَيْنِ نَعْصَبِيَّتَيْنِ لِلْأُطْرُوْحَةِ وَنَقِيضِهَا، وَهُمَا حَالَةُ الْأُطْرُوْحَةِ تَعْصِبُ الْكُوفِيَّيْنَ عَلَى الْبَصْرِيَّيْنَ وَحَالَةُ نَقِيضِهَا تَعْصِبُ الْبَصْرِيَّيْنَ عَلَى الْكُوفِيَّيْنَ؛ وَأَمَّا الْمَبْحَثُ الثَّانِي فَمُسَخَّرٌ لِطَوْرِ النَّحْوِ الَّذِي يُمْتَلُّ حَالَةً تَسَامُحِيَّةً نِسْبِيَّةً هِيَ حَالَةُ التَّوْفِيقِ وَالتَّالِيفِ بَيْنَ الْأُطْرُوْحَةِ وَنَقِيضِهَا التَّعْصَبِيَّتَيْنِ فِي الْمَذْهَبِ الْبَغْدَادِيِّ. وَتَبَعَ الْمَبْحَثَيْنِ خَاتِمَةٌ تَضَمَّنَتْ أَمَّهُمَا مَا تَمَخَّصَ عَنْهُ الْبَحْثُ، ثُمَّ مَسْرَدٌ بِمَصَادِرِ الْبَحْثِ وَمَرَاجِعِهِ. وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ، وَمِنْهُ الْعَوْنُ، وَإِلَيْهِ الْمَأْبُ.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ. طَوْرَا الْأُطْرُوْحَةِ وَنَقِيضِهَا:
التَّعْصِبُ وَالتَّعْصِبُ الْمُضَادُّ بَيْنَ النَّحْوِيَّيْنَ الْبَصْرِيَّيْنَ وَالْكُوفِيَّيْنَ:

لَمَّا كَانَتْ مَادَّةُ طَوْرِي الْأُطْرُوْحَةِ وَنَقِيضِهَا هِيَ التَّعْصِبُ، وَجَبَ التَّعْرِيفُ بِهِ وَتَسْلِيْطُ شَيْءٍ مِنَ الضَّوِّءِ عَلَيْهِ قَبْلَ الْخَوْضِ التَّفْصِيْلِيِّ فِي الطَّوْرَيْنِ

(٥) الْوَرْدِيُّ، عَلِيٌّ، وَغَاظُ السَّلَاطِينِ: ٧٢.

(٦) رَوَاهُ، بَلْفِظٍ مُقَارِبٍ جَدًّا، أَبُو دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيُّ (ت. ٥٢٧٥هـ) فِي سُنَنِهِ: ح ٤٢٩١، كِتَابُ الْمَلَاجِمِ، بَابُ مَا يُذَكَّرُ فِي قَرْنِ الْمِئَةِ.

(٧) الْوَرْدِيُّ، عَلِيٌّ، وَغَاظُ السَّلَاطِينِ: ١٠٥١٠٦.

الْمَبْنِيِّ عَلَيْهِ؛ إِذْ إِنَّ الْكَلَامَ عَلَى شَيْءٍ فَرَعٌ عَنِ تَصَوُّرِهِ. فَمِنَ التَّعْرِيفَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ إِيرَادَهَا لِلتَّعَصُّبِ هُنَا أَنَّهُ كِرَاهِيَّةٌ تَقُومُ عَلَى أُسَاسِ حَطِّهَا وَمُتَّصِلٌ هُوَ مَا يَشْعُرُ بِهِ صَاحِبُهُ أَوْ يُعَبِّرُ عَنْهُ، وَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَى جَمَاعَةٍ مُعَيَّنَةٍ إِجْمَالًا أَوْ إِلَى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ لِأَنَّهُ يَنْتَسِبُ إِلَيْهَا؛ أَوْ أَنَّهُ نَمَطٌ لِلْعِدَاوَةِ فِي الْعَلَاqَاتِ الشَّخْصِيَّةِ يُوجَّهُ إِلَى جَمَاعَةٍ كَامِلَةٍ أَوْ إِلَى أَفْرَادِهَا وَيَنْسَمُّ بِاللَّاعْقَلَانِيَّةِ^(٨).

وَمِمَّا تَكَادُ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الدَّارِسِينَ أَنْ وَضَعَ النُّحُو الْعَرَبِيَّ كَانَ بَصْرِيًّا بِامْتِيَازٍ عَلَى يَدِ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ (ت. ٦٩هـ) أَوْلَا ثُمَّ عَلَى أَيْدِي تَلَامِيذِهِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ ثَانِيًا، وَأَنَّ الْبَصْرَةَ اسْتَأَثَّرَتْ بِوَضْعِهِ وَتَعَهَّدَتْ فِي نَشَأَتِهِ، أَمَّا الْكُوفَةُ فَكَانَتْ مُنْصَرَفَةً عَنْهُ بِمَا شَغَلَهَا مِنْ رِوَايَةِ الْأَشْعَارِ وَالْأَخْبَارِ وَالنُّوَادِرِ زُهَاءَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ اسْتَغَلَّتْ فِيهِ طَبَقَتَانِ مِنَ الْبَصْرِيِّينَ بَعْدَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ حَتَّى تَأَصَّلَتْ أُصُولٌ مِنْهُ كَثِيرَةٌ وَعُرِفَتْ بَعْضُ أَبْوَابِهِ^(٩). إِذْ بَدَأَ عُلَمَاءُ الْكُوفَةِ الْاسْتِغَالَ بِالنُّحُو مُتَأَخَّرِينَ عَنِ أَقْرَانِهِمِ الْبَصْرِيِّينَ بِنَحْوِ قَرْنٍ كَامِلٍ فِي أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، وَلَمْ يَتَّضِحْ الْمَذْهَبُ الْكُوفِيُّ مَذْهَبًا مُسْتَقْلَلًا لَهُ سِمَاتٌ مُتَمَيِّزَةٌ، فِي مُقَابَلَةِ الْمَذْهَبِ الْبَصْرِيِّ، إِلَّا مِنْ خِلَالِ مُنَاوَأَتِهِ لَهُ وَمُنَاهِضَتِهِ لِأُصُولِهِ وَرَدِّ نَحْوِيِّهِ آرَاءَ نَحْوِيِّ الْبَصْرَةِ وَوُقُوفِهِمْ مِنْهُمْ مَوْقِفَ النَّدِّ وَالْمُعَارِضِ وَالنَّاقِضِ لِكُلِّ مَا يَذْهَبُ أَصْحَابُهُ إِلَيْهِ^(١٠).

فَالْمَذْهَبُ النَّحْوِيُّ الْكُوفِيُّ حَدِيثُ الْعَهْدِ إِذَنْ إِذَا مَا قِيَسَ بِالْمَذْهَبِ النَّحْوِيِّ الْبَصْرِيِّ. وَقَدْ انْتَقَلَ الْاسْتِغَالَ بِالنُّحُو مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى الْكُوفَةِ لِمَا كَانَ بَيْنَ الْمَصْرِيِّينَ مِنْ تَوَاصُلٍ مُسْتَمِرٍّ مُنْذُ تَمَصِيرِهِمَا،

(٨) يُنظَر: سَيِّدُ عَبْدِ اللَّهِ، مَعْتَزٌ، الْإِتِّجَاهَاتُ التَّعَصُّبِيَّةُ: ٤٤.

(٩) يُنظَر: الطَّنْطَاوِيُّ، مُحَمَّدٌ، نَشَأَةُ النَّحُوِّ وَتَارِيخُ أَشْهُرِ النَّحَاةِ: ٢٨.

(١٠) يُنظَر: رَوَايَ، صِلَاحٌ، النَّحُوُّ الْعَرَبِيُّ: نَشَأَتُهُ، تَطَوُّرُهُ، مَدَارِسُهُ، رِجَالُهُ: ٨٥، وَ ٣٨١.

إِذْ كَانَ التَّنَقُّلُ بَيْنَهُمَا مُيسَّرًا لِلرَّغْبَيْنِ فِيهِ. عَلَى أَنَّ التَّنَافُسَ وَالْخِلَافَ بَيْنَهُمَا كَانَا شَدِيدَيْنِ وَمُحْتَدِمَيْنِ مِنْ عِدَّةِ نَوَاحٍ؛ أَوْلَاهَا النَّاحِيَةُ الْحَزْبِيَّةُ، إِذْ كَانَتْ الْبَصْرَةُ عُثْمَانِيَّةً وَالْكُوفَةُ عَلَوِيَّةً؛ وَثَانِيَتُهَا النَّاحِيَةُ الْعُنْصَرِيَّةُ، فَأَكْثَرُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْكُوفَةِ مِنَ الْيَمَانِيِّينَ؛ وَثَالِثَتُهَا النَّاحِيَةُ الْعِلْمِيَّةُ، فَأَهْلُ الْبَصْرَةِ كَانُوا أَصْحَابَ عُلُومٍ وَفَلَسَفَاتٍ لِكثْرَتِهِمْ اخْتِلَاطِهِمْ بِالْأَجَانِبِ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ كَانُوا أَصْحَابَ فِقْهِ وَحَدِيثٍ وَقِرَاءَةٍ. فَهَذِهِ الْعَوَامِلُ أَحْكَمَتْ أَسْبَابَ الْاِخْتِلَافِ وَالتَّنَافُسِ بَيْنَ الْمَصْرِيِّينَ^(١١).

وَكَانَ سَبْقُ عُلَمَاءِ الْبَصْرَةِ إِلَى وَضْعِ النَّحُوِّ وَاسْتِغَالِهِمْ بِهِ نَحْوَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ قَبْلَ أَنْ يَطْفُو عَلَى السَّطْحِ نَشَاطُ نَحْوِيِّ يُذَكِّرُ لِعُلَمَاءِ الْكُوفَةِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ حَسَدِ الْكُوفِيِّينَ لَهُمْ وَغِيظِهِمْ مِنْهُمْ، بِمَا يُمَكِّنُ عَدُوَّ الْأَطْرُوحَةِ التَّعَصُّبِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي وَلَدَتْ رَدًّا فَعَلِ تَعَصُّبِيًّا مُضَادًّا مِنْ جَانِبِ الْبَصْرِيِّينَ وَاجْهُوا بِهِ تَعَصُّبَ الْكُوفِيِّينَ، بِمَا يُمَكِّنُ عَدُوَّ نَقِيضِ الْأَطْرُوحَةِ التَّعَصُّبِيَّةِ الْأُولَى فِي الْجَدَلِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ آنْفًا. عَلَى أَنَّ النَّظَرَ إِلَى الْمُنَاكِفَاتِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ زَاوِيَةٍ أُخْرَى قَدْ يَجْعَلُنَا نَعَكْسُ الْأَمْرِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْبَصْرِيِّينَ لَمْ يَعْدَمُوا مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْسُدُوا عَلَيْهِ الْكُوفِيِّينَ وَيَنْفَسُوهُمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ قُرْبُهُمْ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَحُظُوتِهِمْ عِنْدَهُمْ، حَيْثُ الْجَاهُ وَالصِّيتُ وَالثَّرْوَةُ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ هَوَى الْعَبَّاسِيِّينَ كَانَ مَعَ أَهْلِ الْكُوفَةِ، لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ وَأَكْثَرُ انْقِيَادًا لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ الَّذِينَ كَانُوا عُثْمَانِيَّةً الْهَوَى فَنَشَأَ مِنْهُمْ الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ^(١٢). وَبِذَلِكَ يُمَكِّنُ عَدُوَّ حِنَقِ الْبَصْرِيِّينَ وَتَحَامُلُهُمْ عَلَى الْكُوفِيِّينَ، حَسَدًا مِنْهُمْ لَهُمْ عَلَى مَا نَالُوهُ مِنْ زُلْفَى عِنْدِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ حُرْمِهَا هُمْ، الْأَطْرُوحَةُ التَّعَصُّبِيَّةُ

(١١) يُنظَر: الْمَخْرُومِيُّ، مَهْدِيٌّ، مَدْرَسَةُ الْكُوفَةِ وَمَنْهَجُهَا فِي دِرَاسَةِ اللُّغَةِ وَالنُّحُوِّ: ٦٥٦٦.

(١٢) يُنظَر: الْحَدِيثِيُّ، خَدِيجَةٌ، الْمَدَارِسُ النَّحْوِيَّةُ: ١٩٦.

الأولى التي وُلدت رَدَّ فِعْلٍ تَعَصَّبًا مُضَادًّا مِنْ جَانِبِ الْكُوفِيِّينَ وَاجْهُوا بِهِ تَعَصَّبَ الْبَصْرِيِّينَ، بِمَا يُمَكِّنُ عُدَّهُ نَقِيضَ تِلْكَ الْأُطْرُوحَةِ التَّعَصُّبِيَّةِ الْأُولَى. وَلَئِنَّ الْأَمْرَيْنِ جَدَلِيَّانِ مُحْتَمَلَانِ، لَنْ نَقْطَعَ فِي دِرَاسَتِنَا بِأَيِّ مِنْهُمَا، بَلْ سَنَعَامِلُهُمَا بِوَصْفِ كُلِّ مِنْهُمَا يَنْطَوِي عَلَى أُطْرُوحَةٍ وَنَقِيضٍ لَهَا، فِي جَدَلِيَّةٍ ثَنَائِيَّةٍ فَرَعِيَّةٍ مُضْمَنَةٍ فِي الْجَدَلِيَّةِ الثَّلَاثِيَّةِ الرَّئِيسَةِ.

أَوَّلًا. تَعَصَّبُ الْكُوفِيِّينَ عَلَى الْبَصْرِيِّينَ:

مَرَّ بِنَا أَنْفَاءً أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسَ الَّذِي دَعَا الْكُوفِيِّينَ إِلَى النَّيْلِ مِنَ الْبَصْرِيِّينَ هُوَ حَسَدُهُمْ لَهُمْ عَلَى سَبِقِهِمْ بِنَحْوِ مِئَةِ عَامٍ فِي الْاِشْتِغَالِ بِالنَّحْوِ. وَنَزِيدُ هُنَا سَبَبًا آخَرَ لِمُعَادَاةِ الْكُوفِيِّينَ لِلْبَصْرِيِّينَ هُوَ خَشْيَتُهُمْ أَنْ يُنَافِسُوهُمْ عَلَى الْحُظُورَةِ لَدَى الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ وَأَنْ يَسْحَبُوا بِسَاطِ الْجَاهِ وَالْمَالِ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ لِيَحُلُّوا مَحَلَّهُمْ وَيَسْتَوْلُوا عَلَى مَنْزِلَتِهِمْ.

وَقَدْ كَانَ سَيَّبُوَيْه (ت. ١٨٠هـ) صَاحِبَ النَّصِيبِ الْأَعْظَمِ وَالْحَظِّ الْأَوْفَرِ مِنْ طَعْنِ الْكُوفِيِّينَ فِي شَخْصِهِ وَفِي كِتَابِهِ، وَلَيْسَ هَذَا بِمُسْتَعْرَبٍ؛ لِمَا لِهَذَا النَّحْوِيِّ الْبَصْرِيِّ مِنْ مَنَزَلَةٍ كَبِيرَةٍ وَلِمَا لِكِتَابِهِ الْعَظِيمِ مِنْ أَثَرٍ فِي بُلُوغِ الْبَصْرِيِّينَ مَا بَلَغُوهُ فِي عِلْمِ النَّحْوِ. فَقَدْ اتَّخَذَ الطَّعْنُ فِي هَذَا النَّحْوِيِّ الْبَصْرِيِّ الْكَبِيرِ مَظْهَرَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا مَظْهَرُ النَّيْلِ مِنْهُ هُوَ شَخْصِيًّا؛ وَالْآخَرُ مَظْهَرُ النَّيْلِ مِنْ كِتَابِهِ. وَفِي الْآتِي أَمْتَلُهُ لِكُلِّ مِنْ هَذَيْنِ الْمَظْهَرَيْنِ:

١. نَيْلُ الْكُوفِيِّينَ مِنْ شَخْصِ سَيَّبُوَيْه:

مِنْ أَقْدَعِ مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ ذَمِّ الْكُوفِيِّينَ لِشَخْصِ سَيَّبُوَيْهٍ وَتَحَامُلِهِمْ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى سُلَيْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكُوفِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْحَامِضِ (ت. ٣٠٥هـ) مِنْ مَبْلَغٍ مِنَ التَّعَصُّبِ عَلَى سَيَّبُوَيْهٍ جَعَلَهُ يَنْعَتُهُ بِالِدَّجَلِ وَالشَّيْطَانَةِ، إِذْ حَكَى أَبُو الطَّيِّبِ اللَّغَوِيُّ (ت. ٣٥١هـ) عَنْ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ كَيْسَانَ (ت. ٣٢٠هـ) أَنَّهُ رَأَى فِي الْمَنَامِ الْجَنِّ

وَهُمْ يَتَنَاطَرُونَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ الْعُلُومِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ تَمِيلُونَ فِي النَّحْوِ؟ فَقَالُوا: إِلَى سَيَّبُوَيْهٍ. فَلَمَّا بَلَغَ الْخَبَرَ الْحَامِضُ غَضِبَ ثُمَّ قَالَ: "قَدْ صَدَقَ، إِنَّمَا سَيَّبُوَيْهٍ دَجَالٌ شَيْطَانٌ، فَلِذَلِكَ تَمِيلُ إِلَيْهِ الْجَنُّ" (١٣).

وَيَبْدُو أَنَّ الْحَامِضَ هَذَا كَانَ مَحْوَرًا يَدُورُ حَوْلَهُ الْكَثِيرُ مِنْ رَوَايَاتِ الطَّعْنِ فِي سَيَّبُوَيْهٍ الَّتِي تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْعَصْبِيَّةِ الْمُزَكَّمَةِ لِلْأُنُوفِ. فَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا رُوِيَ مِنْ اجْتِمَاعِ أَبِي إِسْحَاقَ الرَّجَّاجِ (ت. ٣١١هـ) بِأَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى الْمَعْرُوفِ بِتَعْلَبِ (ت. ٢٩١هـ) وَالْحَامِضِ، وَأَنَّ ثَانِيَهُمَا قَالَ لِلرَّجَّاجِ: "فَصَاحِبُكُمْ الْأَكْبَرُ - يَعْنِي سَيَّبُوَيْهٍ - كَانَ أَغْلَفَ اللِّسَانِ عَيْبًا عَنِ الْبَيَانِ؛ ذَكَرَ لِي مَنْ أَثَقُ بِقَوْلِهِ أَنَّهُ سَمِعَهُ بِالْبَصْرَةِ يَقُولُ لِجَارِيَةٍ لَهُ: هَاتِي ذِيكَ الْمَاءِ مِنْ ذَاكَ الْحُبِّ. فَأَزَّرَ تَعْلَبُ قَوْلَهُ وَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ فِي كِتَابِهِ مِثْلَ هَذَا، وَذَكَرَ مَوْضِعًا مِنْ كِتَابِهِ يُنَاسِبُ مَا حَكَاهُ الْحَامِضُ أَوْ يُقَارِبُهُ" (١٤).

فَإِنْ لَمْ تَكُنِ الْقِصَّةُ مِمَّا لُفِّقَ عَلَى سَيَّبُوَيْهٍ فَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَنَّهُ تَبَسَّطَ مَعَ جَارِيَتِهِ فِي الْحَدِيثِ فَخَاطَبَهَا بِلُغَةٍ غَيْرِ فَصِيحَةٍ، أَخَذًا بِالْقَاعِدَةِ الْقَاضِيَةِ بِأَنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ أَوْ حَالٍ مَا يُنَاسِبُ مِنْ أَلْوَانِ الْكَلَامِ وَدَرَجَاتِ الْفَصَاحَةِ.

وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ أَنَّ إِمَامَ الْكُوفِيِّينَ الْفَرَّاءَ (ت. ٢٠٧هـ) كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْهُ مَا يُشَبِّهُ مَا نَعُوهُ عَلَى سَيَّبُوَيْهٍ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْبَسُوا فِيهِ بِبِنْتِ شَفَةِ. وَجَاءَ لَحْنُ الْفَرَّاءِ حِينَ دَخَلَ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ (ت. ١٩٤هـ) فَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ لَحَنَ فِيهِ مَرَّاتٍ، فَقَالَ لَهُ: "أَتَلَحَّنُ؟ فَقَالَ الْفَرَّاءُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ طِبَاعَ أَهْلِ الْبَدْوِ الْإِعْرَابُ وَطِبَاعَ أَهْلِ الْحَضَرِ اللَّحْنُ، فَإِذَا تَحَقَّقْتُ لَمْ أَلَحَّنُ، وَإِذَا رَجَعْتُ إِلَى الطَّبَعِ لَحَنْتُ. فَاسْتَحَسَّنَ الرَّشِيدُ قَوْلَهُ" (١٥).

(١٣) اللَّغَوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النَّحْوِيِّينَ: ١٤٠.

(١٤) إِبْنَةُ الرُّوَاةِ عَلَى أَنْبَاءِ النُّحَاةِ: ١٤١/٣.

(١٥) إِبْنَةُ الرُّوَاةِ عَلَى أَنْبَاءِ النُّحَاةِ: ٧٨/٤.

٢. نِيلُ الكُوفِيِّينَ مِنْ كِتَابِ سَيَّبُوِيَه:

ساقِ أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ مِنْ أَلْوَانِ تَعَصُّبِ الكُوفِيِّينَ عَلَى كِتَابِ سَيَّبُوِيَه مَا يَنْدَى لَهُ جَبِينُ الحَقِيقَةِ. إِذْ كَانَ مِمَّا ذَكَرَهُ فِي تَرْجَمَتِهِ لِلْفَرَّاءِ الكُوفِيِّ أَنَّهُ كَانَ زَائِدًا العَصْبِيَّةَ عَلَى سَيَّبُوِيَه، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ كِتَابُ هَذَا يُفَارِقُهُ حَتَّى إِنَّهُ مَاتَ وَهُوَ تَحْتَ رَأْسِهِ؛ لِأَنَّهُ - بِحَسَبِ تَفْسِيرِ أَبِي مُوسَى الحَامِضِ - كَانَ يَتَّبَعُ خَطَأَهُ وَلُكَّنْتَهُ^(١٦)، وَأَنَّهُ كَانَ يَتَعَمَّدُ مُخَالَفَةَ سَيَّبُوِيَه حَتَّى فِي الأَقَابِ الإِعْرَابِ وَتَسْمِيَةِ الحُرُوفِ^(١٧).

وَلَوْ أَنَّا صَرَّبْنَا صَفْحًا عَنْ تَرْهَاتِ الكُوفِيِّينَ وَمُهَاتِرَاتِهِمْ، وَتَجَاوَزْنَا كَذَلِكَ مُخَالَفَاتِهِمْ التَّفْصِيلِيَّةَ لِسَيَّبُوِيَه الشَّائِعَةَ بَيْنَ رِجَالِ المَذْهَبَيْنِ، مَا كَانَ لَدِينَا مِنْ أَقْوَالِهِمْ مَا يَرْقَى إِلَى أَنْ يُعَدَّ طَعْنًا جَوْهَرِيًّا فِي كِتَابِ، اللُّهُمَّ إِلَّا مَا قَدْ يُفْهَمُ عَلَى أَنَّهُ مُحَاوَلَةٌ بَعْضِ كِبْرَائِهِمُ التَّشْكِيكَ فِي أَحَقَّةِ نَسَبَتِهِ إِلَى سَيَّبُوِيَه، وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رِوَايَتَيْنِ فِي هَذَا الشَّانِ. فَأَمَّا إِحْدَاهُمَا فَمَا حُكِيَ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الرُّوَّاسِيِّ (ت. ٢٠٦هـ) مِنْ أَنَّهُ قَالَ: "أَرْسَلَ إِلَيَّ الخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ يَطْلُبُ كِتَابِي، فَبَعَثْتُهُ إِلَيْهِ، فَفَرَّاهُ وَوَضَعَ كِتَابَهُ"^(١٨). وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي رِوَايَةٍ: "فَكُلُّ مَا فِي كِتَابِ سَيَّبُوِيَه: وَقَالَ الكُوفِيُّ كَذَا، فَإِنَّمَا عَنَى الرُّوَّاسِيُّ هَذَا، وَكِتَابُهُ يُقَالُ لَهُ الفَيْصَلُ"^(١٩).

وَحَكَمَتِ الدُّكْتُورَةُ حَدِيجَةُ الحَدِيثِيُّ عَلَى مَا مَضَى بِأَنَّهُ عَارٍ مِنَ الصِّحَّةِ لِأُمُورٍ؛ أَوَّلُهَا: أَنَّ "أَقْدَمَ الَّذِينَ تَرَجَّمُوا لِلرُّوَّاسِيِّ لَمْ يَذْكُرُوا هَذِهِ القِصَّةَ"^(٢٠)؛ وَثَانِيهَا: أَنَّ أَوْلَئِكَ لَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهُ كَانَ مِنْ دَوِي

(١٦) يُنظَر: اللُّغَوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النُّحَوِيِّينَ: ١٣٩.

(١٧) يُنظَر: اللُّغَوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النُّحَوِيِّينَ: ١٤١.

(١٨) نُرْهَةُ الأَلْبَاءِ فِي طَبَقَاتِ الأَدْبَاءِ: ٥١. وَيُنظَر: بُغِيَّةُ الوُعَاةِ فِي طَبَقَاتِ اللُّغَوِيِّينَ وَالنُّحَاةِ: ٨٢/١.

(١٩) بُغِيَّةُ الوُعَاةِ فِي طَبَقَاتِ اللُّغَوِيِّينَ وَالنُّحَاةِ: ٨٢/١ - ٨٣.

(٢٠) كِتَابُ سَيَّبُوِيَه وَشُرُوحُهُ: ٧٢.

الشَّانِ وَالكَعْبِ العَالِي فِي النُّحُو^(٢١)؛ وَثَالِثُهَا: أَنَّ سَيَّبُوِيَه لَمْ يَنْقُلْ عَنْهُ وَلَمْ يَصْرِّحْ بِاسْمِهِ فِي كِتَابِهِ مَعَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنِ الكُوفِيِّينَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي الكِتَابِ^(٢٢)، "فَأَيَّنَ ذَهَبَتْ آرَاؤُهُ الَّتِي كَانَتْ فِي كِتَابِهِ إِنْ صَحَّ مَا يَدَّعِيهِ أَصْحَابُهُ مِمَّنْ رَوَّجُوا هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَأَشَاعُوهَا وَبَالَغُوا فِيهَا؟"^(٢٣).

وَرَجَّحَ عَلَيَّ النُّجْدِيُّ نَاصِفَ (ت. ١٤٠٢هـ) أَلَّا تَعُدَّوْهُ هَذِهِ الرِّوَايَةُ أَنَّ تَكُونَ "كَلِمَةً يُرِيدُ بِهَا قَائِلُهَا مُجَرَّدَ الإِدْلَالِ بِفَضْلِ الرُّوَّاسِيِّ شَيْخِ الكُوفَةِ وَمُقَدِّمِ نُحَاتِهَا عَلَى الخَلِيلِ وَسَيَّبُوِيَه شَيْخِي البَصْرَةَ وَإِمَامِي نُحَاتِهَا...؛ فَإِنَّ الخَلِيلَ لَا يَكَادُ يَرُوي لِسَيَّبُوِيَه عَنْ شَيْخِهِ، فَكَيْفَ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالرِّوَايَةِ لَهُ عَنِ الرُّوَّاسِيِّ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُ قَرَأَ كِتَابَهُ إِذَا صَحَّ ذَلِكَ؟ فَالْقِرَاءَةُ وَحْدَهَا لَا تَسْتَوْجِبُ الرِّوَايَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الخَلِيلُ لَمْ يَقْنَعْ بِقِرَاءَةِ الكِتَابِ فَنَسَخَهُ وَحَفِظَهُ، وَهِيَاهُ أَنْ يَبْلُغَ اهْتِمَامُ الخَلِيلِ بِهِ هَذَا المَبْلَغَ"^(٢٤). وَأَمَّا أُخْرَى الرِّوَايَتَيْنِ فَتَسْعَى إِلَى تَجْرِيدِ سَيَّبُوِيَه مِنْ شَرَفِ الانْفِرَادِ بِتَأْلِيفِ الكِتَابِ، إِذْ قَالَ أَبُو العَبَّاسِ ثَعْلَبٌ: "اجْتَمَعَ عَلَى صَنْعَةِ كِتَابِ سَيَّبُوِيَه اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ إِنْسَانًا مِنْهُمْ سَيَّبُوِيَه، والأَصُولُ وَالْمَسَائِلُ لِلخَلِيلِ"^(٢٥).

وَتَعُودُ الدُّكْتُورَةُ حَدِيجَةُ الحَدِيثِيُّ لِتَنْفِي أَنْ يَكُونَ لِهَذِهِ الرِّوَايَةِ نَصِيبٌ مِنَ الصِّحَّةِ، مُحْتَجَّةً بِأَنَّ "سَيَّبُوِيَه هُوَ الَّذِي أَلَّفَ الكِتَابَ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةُ الرِّوَايَاتِ الَّتِي رَوَاهَا عَنْ شَيْخِهِ"^(٢٦).

(٢١) يُنظَر: كِتَابُ سَيَّبُوِيَه وَشُرُوحُهُ: ٧٢.

(٢٢) يُنظَر: سَيَّبُوِيَه إِمَامُ النُّحَاةِ: ١٠٠؛ وَسَيَّبُوِيَه جَامِعُ النُّحُو العَرَبِيِّ: ١١٥-١١٨.

(٢٣) كِتَابُ سَيَّبُوِيَه وَشُرُوحُهُ: ٧٢-٧٣.

(٢٤) سَيَّبُوِيَه إِمَامُ النُّحَاةِ: ١٠١.

(٢٥) إِبْنَاهُ الرِّوَاةِ عَلَى أَنْبَاءِ النُّحَاةِ: ٣٤٧/٢.

(٢٦) كِتَابُ سَيَّبُوِيَه وَشُرُوحُهُ: ٧٣.

أما الدكتور خالد عبد الكريم جمعة فقرر أن رواية تلعب هذه يمكن حملها على محملين؛ فإن ظننا فيها ظن السوء رأينا فيها طعنا من عالم كوفي يمتثل صورة من صور التعصب المذهبي، وإن افترضنا فيها حسن النية "فإن معناها لا يزيد على أن سيبويه استعان في صنع كتابه بأكثر من أربعين إنساناً، يمكن أن نعد منهم الخليل وأبا عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر وهارون بن موسى وأبا الخطاب الأحمش وعبد الله بن أبي إسحاق والأصمعي وأبا الحسن الأحمش وغيرهم ممن عاصروهم سيبويه وروى عنهم من العلماء والرواة" (٢٧).

ويبدو أن الكوفيين، ولا سيما أئمتهم، كانوا يدركون في سرائرهم ما لكتاب سيبويه من مكانة لا تجحد وفضل لا يحد، ولذلك كانوا يتسابقون حفية إلى نيل شرف التلمذ له، فهذا مقدمهم الكسائي (ت. ١٨٩هـ) يروي عنه أبو الطيب اللغوي أنه حمل إلى "أبي الحسن الأحمش خمسين ديناراً وقرأ عليه كتاب سيبويه سراً" (٢٨)؛ لأنه كان يخشى "أن يعلم البصريون قراءته هذه فيغيروا الكوفيين بذلك، وكان يخشى أن يعلم الأمراء والوزراء الذين كان يفاخر أمامهم ويعتد" (٢٩).

يتحصل مما سبق أن الروايتين الكوفيتين السابقتين مطعون فيهما، ولو سلمنا جدلاً بصحتها ما كانتا لتزعزعا ثقة الناس بكتاب سيبويه؛ ذلك بأنهما تصنفان على أنهما من صور التنافس والتحاسد بين المذاهب وعلمائها، وقد

(٢٧) شواهد الشعر في كتاب سيبويه: ٤١. وينظر: مشكلات في التأليف اللغوي في القرن الثاني الهجري: ٥٤؛ وسيبويه البصري أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: ٧٨-٧٩.

(٢٨) اللغوي، أبو الطيب، مراتب النحويين: ١٢٠.

(٢٩) "التنافس وأثره على النحو والنحاة": ١١١.

نص أهل الجرح والتعديل على عدم قبول جرح الأقران (٣٠) بعضهم لبعض بلا حجة واضحة؛ لأن عوامل الغيرة والحسد وغيرها من البشريات تحول في الغالب دون الإنصاف" (٣١).

ولأبي عمر يوسف بن عبد البر (ت. ٤٦٣هـ) كلمة جامعة في هذا الشأن يقول فيها: "الصحيح في هذا الباب أن من صحت عدالته وثبتت في العلم إمامته وبانت ثقته وبالعلم عنايته لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحه ببينة عادلة ... بما يوجب تصديقه في ما قاله لبراءته من الغل والحسد والعداوة والمنافسة وسلامته من ذلك كله" (٣٢). ويصوغ الذهبي (ت. ٧٤٨هـ) لهذه الظاهرة قاعدة يقول فيها: "كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعاب به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد ما ينجو منه إلا من عصم الله. وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصدّيقين" (٣٣).

ثانياً. تعصب البصريين على الكوفيين:

اتخذ نيل البصريين من الكوفيين مظهرين رئيسيين؛ أحدهما مظهر التنقص منهم عموماً دون تخصيص أحد بعينه؛ والآخر مظهر النيل من رموز كوفية معينة رأوا أن في تسقيطها تسقيطاً للمذهب الكوفي من ورائها. وفي الآتي أمثلة لكل من هذين المظهرين:

١. نيل البصريين من الكوفيين عموماً:

لا يعجز مطالع كتب تراجم اللغويين والنحويين

(٣٠) الأقران عند المحذّبين هم المتقاربون في السن والطبقة، ويُقصد بالطبقة الإسناد. ينظر: معجم علوم الحديث النبوي: ٤٨.

(٣١) المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل: دراسة منهجية في علوم الحديث: ٢٦٢.

(٣٢) جامع بيان العلم وفضله: ١٠٩٣/٢.

(٣٣) ميزان الاعتدال في نقد الرجال: ٢٥١/١.

عَنْ أَنْ يَقِفَ عَلَى نُصُوصٍ لِلْبَصْرِيِّينَ تَقَدَّحٌ فِي
الْكُوفِيِّينَ عُمُومًا وَفِي عِلْمِهِمْ إِجْمَالًا. وَمِنْ أَكْثَرِ
النُّصُوصِ لَفَتْا لِلنَّظَرِ فِي هَذَا السِّيَاقِ تِلْكَ الَّتِي
جَاءَتْ فِي كِتَابِ مَرَاتِبِ النُّحَوِيِّينَ لِأَبِي الطَّيِّبِ
اللُّغَوِيِّ إِمَّا عَلَى لِسَانِهِ هُوَ وَإِمَّا مَعْرُوءَةً إِلَى أَبِي
حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ (ت. ٢٥٠هـ).

فَمِمَّا انْتَقَدَ بِهِ أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ نَفْسَهُ
الْكُوفِيِّينَ قَوْلُهُ عَنْهُمْ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ انْتِقَالِ عِلْمِ
النُّحُوِّ إِلَى بَغْدَادَ: "وَعَلَبَ أَهْلُ الْكُوفَةِ عَلَى بَغْدَادَ،
وَحَدَّثُوا الْمُلُوكَ فَقَدَّمُوهُمْ، وَرَغِبَ النَّاسُ فِي الرِّوَايَاتِ
الشَّاذَّةِ، وَتَفَاخَرُوا بِالنُّوَادِرِ، وَتَبَاهَوْا بِالتَّرْخِيصَاتِ
وَتَرَكَوا الْأُصُولَ وَاعْتَمَدُوا عَلَى الْفُرُوعِ، فَاخْتَلَطَ
الْعِلْمُ"^(٣٤). وَلَا يَخْفَى مَا بَيْنَ هَذِهِ السُّطُورِ مِنْ
نِقْمَةٍ بَصْرِيَّةٍ عَلَى اسْتِحْوَاذِ الْكُوفِيِّينَ عَلَى الْحُطُورَةِ
فِي قُصُورِ الْخُلَفَاءِ، تَطْفُو عَلَى سَطْحِ النَّصِّ مِنْ
خِلَالِ حِرْصِ صَاحِبِهِ عَلَى قَرْنِهَا بِمَظَاهِرِ ضَعْفِ
نَحْوِ الْكُوفِيِّينَ لِأَخْذِهِ بِالشَّاذِّ وَالنَّادِرِ وَالرُّخْصِ
وَالْفُرُوعِ، بِالْقِيَاسِ إِلَى نَحْوِ الْبَصْرِيِّينَ الَّذِي يُمَكِّنُ
أَنْ يُفْهَمَ، مِنْ طَرِيقِ مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ، اعْتِمَادَهُ عَلَى
الْمُطَرِّدِ وَالشَّائِعِ وَالْعَزَائِمِ وَالْأُصُولِ.

أَمَّا أَبُو حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيُّ فَمِنْ أَقْسَى نُصُوصِهِ
وَأَشَدِّهَا وَطْأَةً عَلَى الْكُوفِيِّينَ مَا نَقَلَهُ عَنْهُ أَبُو الطَّيِّبِ
اللُّغَوِيُّ مِنْ قَوْلِهِ عَنْهُمْ، وَكَانَ يُسَمِّيهِمْ أَهْلَ بَغْدَادَ:
"أَهْلُ بَغْدَادَ حَشَوُ عَسْكَرِ الْخَلِيفَةِ، وَلَمْ يَكُنْ بِهَا
مَنْ يُوثِقُ بِهِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَلَا مَنْ تُرْتَضَى رِوَايَتُهُ،
فَإِنْ ادَّعَى أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا رَأَيْتَهُ مُخَلَّطًا صَاحِبَ
تَطْوِيلٍ وَكَثْرَةِ كَلَامٍ وَمُكَابَرَةٍ، وَلَا يَفْصِلُ بَيْنَ عُلَمَاءِ
الْبَصْرَةِ بِالنُّحُوِّ وَبَيْنَ الرُّوَّاسِيِّ وَالْكِسَائِيِّ، وَلَا
بَيْنَ قِرَاءَةِ أَهْلِ الْحَرَمَيْنِ وَقِرَاءَةِ حَمْرَةَ، وَيَنْحَقِّظُ
أَحَدُهُمْ مَسَائِلَ مِنَ النُّحُوِّ بِلَا عِلَلٍ وَلَا تَفْسِيرٍ فَيَكْثُرُ
كَلَامُهُ عِنْدَ مَنْ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا هُمْ أَحَدِهِمْ إِذَا

(٣٤) اللُّغَوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النُّحَوِيِّينَ: ١٤٤.

سَبَقَ إِلَى الْعِلْمِ أَنْ يُسَيَّرَ اسْمًا يَخْتَرِعُهُ لِيُنْسَبَ إِلَيْهِ،
فَيُسَمَّى الْجَرُّ حَفْضًا، وَالظَّرْفُ صِفَةً، وَيُسَمُّونَ
حُرُوفَ الْجَرِّ حُرُوفَ الصِّفَاتِ، وَالْعَطْفَ النَّسَقَ،
و(مفاعيلن) فِي الْعَرُوضِ (فَعُولان)، وَنَحْوَ هَذَا
مِنَ التَّخْلِيصِ"^(٣٥)، فَمَا كَانَ مِنْ أَبِي الطَّيِّبِ اللُّغَوِيِّ
إِلَّا أَنْ عَلَّقَ عَلَى هَذَا الَّذِي قَالَهُ السَّجِسْتَانِيُّ بِقَوْلِهِ:
"وَالأَمْرُ فِي زَمَانِنَا هَذَا - أَصْلَحَكَ اللَّهُ - عَلَى

أَضْعَافٍ مَا عَرَفَ أَبُو حَاتِمٍ"^(٣٦).
وَيُهْمُنَا مِنْ هَذَا النَّصِّ الطَّوِيلِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:
أَوَّلُهَا: رَبَطُ صَاحِبِهِ أَيْضًا بَيْنَ الْكُوفِيِّينَ وَالْخِلَافَةِ
الْعَبَّاسِيَّةِ بِنَبْزِهِمْ بِأَنَّهُمْ (حَشَوُ عَسْكَرِ الْخِلَافَةِ)،
بِكُلِّ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ كَلِمَةٌ (حَشَوُ) مِنْ إِحْيَاءِ
بِالْهَوَانِ وَالتَّفَاهَةِ وَقِلَّةِ الْجَدْوَى؛ وَثَانِيهَا: تَنْبِيهُ
السَّجِسْتَانِيِّ عَلَى أَنَّ الْبَصْرِيِّينَ سَبَقُوا الْكُوفِيِّينَ
فِي تَأْسِيسِ النُّحُوِّ وَتَشْيِيدِ أَرْكَانِهِ، وَأَنَّ هَذَا السَّبْقَ
هُوَ الَّذِي أَحْفَظَ الْكُوفِيِّينَ عَلَيْهِمْ وَأَثَارَ نِقْمَتِهِمْ
وَدَعَاهُمْ إِلَى الأَمْرِ الثَّلَاثِ؛ وَهُوَ: اخْتِرَاعُ مُصْطَلَحَاتِ
جَدِيدَةٍ يُعْرَفُونَ بِهَا وَيُمَيِّزُونَ، إِدْرَاكًا مِنْهُمْ لِأَهْمِيَّةِ
المُصْطَلَحَاتِ فِي الْعِلْمِ الْمُعِينِ بِحَيْثُ يَعْلُقُ فِي أَرْكَانِهَا
مُنْتَقِيهَا أَنَّ مُخْتَرِعَهَا هُوَ مُخْتَرِعُ الْعِلْمِ الَّذِي تُعَبَّرُ
عَنْهُ.

وَلَا بُدَّ هُنَا مِنْ وَقْفَةٍ مَوْضُوعِيَّةٍ نَتَفَحَّصُ فِيهَا
صِحَّةَ مَا نَسَبَهُ السَّجِسْتَانِيُّ إِلَى الْكُوفِيِّينَ مِنْ أَنَّهُمْ
هُمُ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا المُصْطَلَحَاتِ الْمَذْكُورَةَ، وَالْوَاقِعُ
أَنَّهَا جَمِيعًا مِمَّا وُجِدَ فِي اسْتِعْمَالِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ
الْفَرَاهِيدِيِّ (ت. ١٧٥هـ) المُوَسَّسِ الفِعْلِيِّ لِلنُّحُوِّ
الْبَصْرِيِّ، بِفِعْلِ تَلْمِذَةِ نَحْوِيِّي الْكُوفَةِ الْأَوَائِلِ لَهُ.
إِذْ وَرَدَ مُصْطَلَحُ (الْحَفْضُ)، لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْجَرِّ،
عِنْدَ الْخَلِيلِ^(٣٧)، وَمُصْطَلَحُ (الصَّفَّةُ)، لِلتَّعْبِيرِ

(٣٥) اللُّغَوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النُّحَوِيِّينَ:
١٦٠، ١٦١.

(٣٦) اللُّغَوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النُّحَوِيِّينَ: ١٦١.

(٣٧) يُنْظَرُ: الفَرَاهِيدِيُّ، الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ، كِتَابُ الْعَيْنِ:
٧٩، ٥٣٣.

عن الظرف، عنده أيضاً^(٣٨)، ومُصطَلَحُ (حُرُوفِ الصِّفَاتِ) لِلتَّعْبِيرِ عَنْ حُرُوفِ الْجَرِّ عِنْدَهُ أَيْضًا^(٣٩)، وَمُصطَلَحُ (النَّسَقِ)، لِلتَّعْبِيرِ عَنِ العَطْفِ، عِنْدَهُ أَيْضًا^(٤٠).

٢. نِيلُ البَصْرِيِّينَ مِنْ كُوفِيِّينَ مَخْصُوصِينَ:

كثيرونَ هُم النُّحويُّونَ الكُوفيُّونَ الذينَ وَجَّهَ إليهم البصريُّونَ سِهَامَ التَّجْرِيحِ والطَّعْنِ، لِكِنْ سَأَكْتَفِي فِي هَذَا المَقَامِ بِاثْنَيْنِ مِنْهُم لِكُلِّ مِنْهُمَا حُصُوصِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ.

أَمَّا الأوَّلُ فَهُوَ أَبُو جَعْفَرِ الرُّوَاسِيِّ الَّذِي زَعَمَ الكُوفيُّونَ أَنَّ الخَلِيلَ أَفَادَ مِنْهُ، مُحَاوِلِينَ بِذَلِكَ تَلْمِيحَ صُورَتِهِ لِيَكُونَ نَدِيدًا كُوفِيًّا لِلخَلِيلِ البَصْرِيِّ. فَمَا كَانَ مِنَ البَصْرِيِّينَ إِلَّا أَنْ رَدُّوا لَهُمُ الصَّاعَ صَاعِينَ، بَطَعْنَهُمْ فِي عِلْمِ الرُّوَاسِيِّ وَمُحَاوَلَةٍ تَسْقِيطِهِ تَمَامًا وَسَلِيهِ كُلِّ فَضِيلَةٍ عِلْمِيَّةٍ، لِيَسْلُبُوا بِذَلِكَ الكُوفِيِّينَ مَزِيَّةَ التَّأثيرِ فِي الشَّخْصِيَّةِ البَصْرِيَّةِ الَّتِي كَانَ لَهَا الفَضْلُ الأَكْبَرُ فِي ظُهُورِ المَدُونَةِ النُّحَوِيَّةِ البَصْرِيَّةِ الخَالِدَةِ، أَعْنِي كِتَابَ سَيَبَوِيهِ.

وَمِمَّا أَثَرَ مِنْ تَنَقُّصِ البَصْرِيِّينَ لِلرَّجُلِ وَتَعْصِبِهِمْ عَلَيْهِ قَوْلُ المَبْرَدِ (ت. ٢٨٥هـ): "مَا عَرَفَ الرُّوَاسِيُّ بِالبَصْرَةِ. وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ صَدَفَ كِتَابًا فِي النُّحُو، فَدَخَلَ البَصْرَةَ لِيَعْرِضَهُ عَلَى أَصْحَابِنَا، فَلَمْ يُلْتَفَتْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَجْسُرْ عَلَى إِظْهَارِهِ لَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُمْ"^(٤١). وَلَا يَخْفَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ كَلَامُ المَبْرَدِ هَذَا مِنْ تَعْصِبٍ عَلَى الرُّوَاسِيِّ مَبْعَثُهُ الرِّغْبَةَ فِي

(٣٨) يُنظَر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين: ٧٩، ٣١١.

(٣٩) يُنظَر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين: ٣٥، ٢٢١.

(٤٠) يُنظَر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، المنظومة النحوية: ٢٢٤٢٢٥؛ والأحمر، خلف، مُقَدِّمَةٌ فِي النُّحُو: ٨٥٨٦.

(٤١) السُّيُوطِي، جلال الدين، بُغِيَّةُ الوُعاة فِي طَبَقَاتِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحَاة: ٨٣/١.

تَسْقِيطِ عِلْمِهِ وَإِظْهَارِ هَامِشِيَّتِهِ.

وَأُورِدَ أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ فِي كِتَابِهِ مَرَاتِبُ النُّحَوِيِّينَ تَرْجَمَةً مُوجِزَةً جَدًّا لِلرُّوَاسِيِّ بِدَافِعِ بَقُولِهِ عِنْدَهُ إِنَّهُ عَالِمٌ أَهْلُ الكُوفَةِ، فَفَقِيدٌ عَالِمِيَّتُهُ وَحَصَرَهَا بِالكُوفَةِ وَحَدَهَا لِئَلَّا يُظَنَّ أَنََّّهُ يُقَرُّ بِهِ عَالِمًا مُطْلَقًا. لِكِنْ يَبْدُو أَنَّ هَذَا الفَيْدَ لَمْ يُرْضَ عَصَبِيَّةَ أَبِي الطَّيِّبِ تُجَاهَ الرَّجُلِ، فَسَارَعَ إِلَى دَفْعِ وَهْمٍ لَا يَطْرَأُ إِلَّا فِي حَوَاطِرِ المُنْعَصِبِينَ أَمْثَالِهِ وَهُوَ أَنَّ سَوَقَ تَرْجَمَةِ لِلرُّوَاسِيِّ، مَهْمَا تَكُنْ مُوجِزَةً، يَعْنِي جَعَلَهُ فِي مَرْتَبَةٍ مُسَاوِيَةٍ أَوْ مُدَانِيَّةٍ فِي أَقْلٍ تَقْدِيرِ اللُّغَوِيِّينَ البَصْرِيِّينَ الَّذِينَ تَرْجَمَ لَهُمْ فِي كِتَابِهِ، فَكَانَ أَنَّ عَقَبَ مُبَاشَرَةً بِقَوْلِهِ: "وَلَيْسَ بِنَظِيرٍ لَهُوَلَاءِ الَّذِينَ دَكَّرْنَا وَلَا قَرِيبٍ مِنْهُمْ"^(٤٢).

وَكَانَ كُلُّ ذَلِكَ التَّنْقِصِ لَمْ يَرَوْ غَلِيلَ أَبِي الطَّيِّبِ، فَزَادَ عَلَيْهِ رِوَايَتُهُ عَنِ أَبِي حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ، الَّذِي مَا فَتَى يَطْعَنُ فِي عُمُومِ الكُوفِيِّينَ وَأَحَادِهِمْ، أَنَّهُ قَالَ: "كَانَ بِالكُوفَةِ نَحْوِيٌّ يُقَالُ لَهُ أَبُو جَعْفَرِ الرُّوَاسِيِّ، وَهُوَ مَطْرُوحُ العِلْمِ لَيْسَ بِشَيْءٍ"^(٤٣)، فَانظُرْ إِلَى قَسْوَةِ هَذَا الحُكْمِ عَلَى الرَّجُلِ بِعِبَارَةِ (لَيْسَ بِشَيْءٍ) الَّتِي لَا تُبْقِي لَهُ شَيْئًا مِنَ الفَضْلِ وَتُجَرِّدُهُ مِنْ كُلِّ مَزِيَّةٍ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا صَدَرَ عَنِ البَصْرِيِّينَ مِنْ ذَمِّ لِلرُّوَاسِيِّ إِنَّمَا كَانَ بِاعْتِهَ الهَوَى الَّذِي نَجَمَ فِي عُصُورِ العَصَبِيَّةِ المُظْلِمَةِ الَّتِي أَعْقَبَتْ عَصَرَ الوِثَامِ وَالصِّفَاءِ، أَنَّهُ كَانَ هُوَ وَالخَلِيلُ يَجْلِسَانِ فِي حَلَقَةٍ عَيْسَى بْنِ عُمَرَ التَّقْفِيِّ^(٤٤) وَلَمْ يَكُنِ الرُّوَاسِيُّ يَشْعُرُ بِأَيِّ غَضَاضَةٍ فِي تَلْقَى العِلْمِ عَلَى شَيْخِ بَصْرِيٍّ كَمَا كَانَ التَّقْفِيُّ لَا يَسْتَشْكِلُ وُجُودَ كُوفِيٍّ فِي حَلَقَتِهِ

(٤٢) اللُّغَوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النُّحَوِيِّينَ: ٤٨.

(٤٣) اللُّغَوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النُّحَوِيِّينَ: ٤٨.

(٤٤) يُنظَر: الرُّبَيْدِيُّ، أَبُو بَكْرٍ، طَبَقَاتُ النُّحَوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ: ١٣٥؛ والجبوري، عبد الله، أَبُو جَعْفَرِ الرُّوَاسِيِّ: نَحْوِيٌّ مِنَ الكُوفَةِ: ٢٥.

وكما كان الخليل لا يجد بأساً في صحبتته، والأمر نفسه يُقال عن حلقة أبي عمرو بن العلاء الذي تلمذ له فيها كلاهما^(٤٥).

وأما الشخصية الكوفية الأخرى التي نالها قسط كبير من ذم البصريين فهي الكسائي الذي يعدّه كثيرون المؤسس الحقيقي للنحو الكوفي، فلا عجب في أن حاول البصريون تسقيطه والخط من منزلته ومن قيمة علمه، ليزيحوه من مشهد مرحلة اشتداد عود النحو العربي واستوائه على سوقه. ثم إنّه كان صاحب الخطوة الكبرى في بلاط هارون الرشيد، وكان مؤدّباً لولديه ووليّ عهده الأمين والمأمون^(٤٦)، فكان هذا دافعاً آخر دنيوياً إلى التفتُّص منه حسداً له وبعياً عليه. ويزاد على هذا وذلك أنّه كان سبب انكسار إمام النحويين سيبويه وانهزامه في المناظرة التي جرت بينهما في حضرة يحيى بن خالد البرمكي وعُرفت المسألة التي قامت عليها باسم المسألة الزنبورية^(٤٧).

ومن ألدّ الانتقادات التي وجهها البصريون إلى الكسائي ما ذكره في حقه أبو حاتم السجستاني، إذ قال: "لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب، ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً، وعلمه مختلط بلا حُجج ولا علل إلا حكايات عن الأعراب مطروحة؛ لأنّه كان يلقنهم ما يريد"^(٤٨).

فتأمّل قوله في بدء حديثه: "لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب"، تجد فيه اشتطاطاً وتطرفاً واضحين غرضهما سلب كل

فضيلة للكوفيين مهما تكن ضئيلة. وما ذانكم الاشتطاط والتطرف بالعارضين الطارئين عند البصريين، بل هما منهج لهج به غلاة البصريين، كأبي الطيب اللغوي الذي كأنّه تقمّص شخصية السجستاني المتشدّدة حين صرح بقوله: "ولم يكن بالكوفة ولا في مصر من الأمصار مثل أصغرهم [يعني البصريين] في العلم بالعربية"^(٤٩)، وهو قول ينضح بالعصبية والغلو كما لا يخفى.

ثمّ تأمّل قول أبي حاتم بعد ذلك: "ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً"، تلم في تضاعفه حسداً دفيناً للكسائي ولأمثاله من الكوفيين الذين قرّبهم خلفاء بني العباس وجعلوهم مؤدّبين لأولادهم، وتمثلاً حياً لأسطورة الثعلب الذي لم يستطع الوصول إلى عنقود العنب الذي كان شديد التوق إليه، فما كان منه إلا أن ذم العنب بحجة أنّه حامض المذاق، ف"ما أيسر أن تهون من شأن الشيء الذي استعصى عليك مناله"^(٥٠).

ثمّ تأمّل أخيراً غمزه الكسائي وطعنه فيه بشأن الأعراب وأنّه "كان يلقنهم ما يريد"، فكانت يشير بذلك إلى ما جرى في مناظرتيه لسبويه من استدعائه أعراب الحطيمية وتأييدهم قوله، إذ أشاع بعض القدماء والمحدثين أن الكسائي كان قد أعدّ هذا الأمر سلفاً ولقّن الأعراب ما ينصره على سبويه ورشاهم ليفعلوا ذلك^(٥١). وبعيداً عن الدفاع عن الكسائي بأنّه أحد القراء السبعة

(٤٩) اللغوي، أبو الطيب، مراتب النحويين: ٥١.

(٥٠) إيسوب، حكايات إيسوب: ٦٧.

(٥١) يُنظر: ابن الأنباري، أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين: ٥٦٤؛ والأنصاري، ابن هشام، مغني اللبيب عن كُتب الأعراب: ٥٧٥٨/٢؛ والفقهي، أبو العبد الطاهر، "أخطاء العلماء بين الكبرياء والتعصب والغفلة": ٢٠٠.

(٤٥) يُنظر: القبطي، جمال الدين، إنباه الرواة على أنباء النحاة: ١٠٥/٤.

(٤٦) يُنظر: ابن النديم، أبو الفرج، الفهرست: ٩٠.

(٤٧) يُنظر: الزجاجي، أبو القاسم، مجالس العلماء: ٩١٠.

(٤٨) اللغوي، أبو الطيب، مراتب النحويين: ١٢٠١٢١.

الذين ائتمنتهم الأمة على قراءة كتابها الكريم، يكفي لدفع هذه التهمة عنه أنه خيّر سيبويه في بداية المناظرة بين أن يبدأ سيبويه بالسؤال وأن يبدأ هو، فاختار سيبويه بمحض إرادته أن يبدأ الكسائي^(٥٢)، فأنى للكسائي والحال كذلك أن يعلم ما كان سيبويه سيسأله لو أنه اختار أن يبدأ هو لا الكسائي بالسؤال، وهو الأمر المتوقع من امرئ قطع الفيافي ليظفر في موقف كهذا؟ وأنى له، والحال كذلك، أن يواطئ الأعراب على أمر جهله؟ وكما كان الخطيب البغدادي موقفاً حين نعت مروّجي هذه التهمة بقوله: "فقال بعض الجهال: إن الكسائي واطأ الأعراب من الليل حتى تكلموا بالذي أراد. وهذا قول لا يعرج عليه؛ لأن مثل هذا لا يخفى على الخليفة والوزير وأهل بغداد أجمعين"^(٥٣).

ونكتفي بهذا القدر من عرض صور أطروحتي التّعبُّب والتّعبُّب المضاد، لننتقل إلى المرحلة الثالثة من مراحل جدليتنا الثلاثية، أعني بها مرحلة التسامح والتوفيق بين المرحلتين التّعبُّبيتين السابقتين لها، التي كانت مدينة السلام بغداد مهدها وحاضنتها.

المبحث الثاني. طور المركب التوفيقية:
تسامح البغداديين:

يُحسُن بنا، بادئ بدء، التعريف بالتسامح الذي عليه مدار هذا المبحث. فمعناه الواسع هو ما يتصف به المرء من ظرف وأنس وأدب تمكّنه من معايشة الناس على الرغم من اختلاف آرائهم عن آرائه^(٥٤).

وقد مهدّ ظهور الدولة العباسية، التي اتخذت بغداد عاصمة لها، لظهور المذهب البغدادي الذي كان همه الترجيح بين الرأيين البصري والكوفي، ثم استخلاص مذهب وسط بين المذهبين^(٥٥)، فأخذت الاختلافات بين البصريين والكوفيين تخف حدة وتضعف وطأتها تدريجياً، وبدأت بوادر التسامح بين الفريقين تلوح في الأفق على أرض بغداد التي أبت إلا أن يكون لها من اسمها (مدينة السلام) نصيب، إذ كان لها إسهام كبير في إحلال السلم بين الطرفين محل الحرب، على الرغم من محاولة قوى التعصب والفرقة إعادة الأمور إلى ما كانت عليه سابقاً، كما سيأتي معنا قريباً. وقد صرح المستشرق جوتهود فايل Gotthold Weil بأن المذهب البغدادي اضطلع بهذا الدور التوفيقية، فذكر أن المذهبين انتهى أمرهما واندمجا رويداً رويداً بعد رحيل علمائهما إلى بغداد عاصمة الدولة، وأن دور المذهب البغدادي تمثّل في "إحداث توفيق بين كلا النظامين. ويفترض أن الطمس والمزج هذين قد بدأ في القرن الثالث الهجري واكتملا في القرن الرابع الهجري، وأن الموازنة بينهما قد أنتجت ذلك النظام النحوي الذي نجده في مصنفات المتأخرين"^(٥٦). وذكر أيضاً أن الامتزاج بين المذهبين في مطلع القرن الرابع الهجري إنما تحقّق على أيدي الذين تلمذوا للمبرد وتعلّب، وإن ظلت ملامح التناقض المنهجية بين البصريين والكوفيين ظاهرة إلى وقت متأخر امتدّ إلى القرن السادس الهجري^(٥٧). وسأعرض

(٥٥) المطوع، يوسف أحمد، جهود علماء النحو في القرن الثالث الهجري: ١٣٥.

(٥٦) فايل، جوتهود، مدخل إلى كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف: ٢٦.

(٥٧) يُنظر: فايل، جوتهود، مدخل إلى كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف: ٨٠٨١.

(٥٢) يُنظر: الزجاجي، أبو القاسم، مجالس العلماء: ٩.

(٥٣) الخطيب البغدادي، أبو بكر، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قضاة العلماء من غير أهلها ووارديها: ٥٩١/١٣.

(٥٤) يُنظر: صليبا، جميل، المعجم الفلسفي: ٢٧١/١.

في الآتي بُعِدَيْنِ لِلتَّسَامُحِ يُمَكِّنُ تَلْمُسُهُمَا فِي الْمَسِيرَةِ
الْبَغْدَادِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ نَحْوَ تَحْقِيقِ التَّمَازُجِ بَيْنَ
الْمَذْهَبَيْنِ الْمُتَنَافِسَيْنِ.
أَوَّلًا. تَسَامُحُ التَّقْلِيدِ:

عَضَاصَةً فِي التَّنْقِيلِ بَيْنَ الْمَذْهَبَيْنِ الْمُتَنَافِسَيْنِ. وَفِي
الآتِي أَنْمُودَجَانِ مِنْ نَمَائِجِ تَسَامُحِ التَّقْلِيدِ هَذَا.

١. تَسَامُحُ الْكِسَائِيِّ مَعَ الْأَخْفَشِ الْأَوْسَطِ:

بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُنَظَرَةِ بَيْنَ سَيَّبُوِيهِ
وَالْكِسَائِيِّ فِي حَضْرَةِ يَحْيَى الْبَرْمَكِيِّ، عَرَفْتُ بَعْدَ
لِقَاءِ تَارِيخِيًّا ثَانِيًّا بَيْنَ الْكِسَائِيِّ الْكُوفِيِّ وَالْأَخْفَشِ
الْأَوْسَطِ الْبَصْرِيِّ، سَعِيدِ بْنِ مَسْعَدَةَ (ت. ٢١٥هـ)،
الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَى بَغْدَادَ بِنِيَّةِ الشَّارِ لِقَرِينِهِ الْبَصْرِيِّ
سَيَّبُوِيهِ مِنَ الْكِسَائِيِّ الْكُوفِيِّ، فَمَا كَانَ مِنْ هَذَا
الْأَخِيرِ إِلَّا أَنْ احْتَوَاهُ مُسْتَفْرِعًا مَا بَدَاخِلِهِ مِنْ نَوَازِعِ
الْعَصَبِيَّةِ وَمُبْطَلًا مَفْعَلَاتِ السَّفْهِ وَالشُّطْطِ. وَنَتَرَكُ
لِلْأَخْفَشِ أَنْ يَرَوِيَ لَنَا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ، إِذْ قَالَ: "لَمَّا
نَظَرَ سَيَّبُوِيهِ الْكِسَائِيَّ وَرَجَعَ وَجَّهَ إِلَيَّ فَعَرَفَنِي
حَبْرَهُ مَعَهُ وَمَعَ الْبَغْدَادِيِّينَ وَوَدَّعَنِي وَمَضَى إِلَى
الْأَهْوَا، فَرَدَدْتُ؛ جَلَسْتُ فِي سَمِيرِيَّةٍ حَتَّى وَرَدْتُ
بَغْدَادَ فَوَافَيْتُ مَسْجِدَ الْكِسَائِيِّ، فَصَلَّيْتُ خَلْفَهُ
الْعِدَاةَ، فَلَمَّا انْقَلَبَ مِنْ صَلَاتِهِ وَقَعَدَ فِي مِحْرَابِهِ
وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْفِرَاءَ وَالْأَحْمَرَ وَابْنُ سَعْدَانَ سَلَّمْتُ
وَسَأَلْتُهُ عَنْ مِئَةِ مَسْأَلَةٍ، فَأَجَابَ بِجَوَابَاتٍ خَطَّأَتْهُ
فِي جَمِيعِهَا، فَأَرَادَ أَصْحَابُهُ الْوُثُوبَ عَلَيَّ فَمَنَعَهُمْ،
وَلَمْ يَقْطَعْنِي مَا رَأَيْتُهُمْ عَلَيْهِ عَمَّا كُنْتُ فِيهِ، فَلَمَّا
فَرَعْتُ مِنَ الْمَسَائِلِ قَالَ لِي الْكِسَائِيُّ: بِاللَّهِ، أَنْتَ
أَبُو الْحَسَنِ سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَامَ
إِلَيَّ وَعَانَقَنِي وَأَجْلَسَنِي إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ قَالَ: لِي أَوْلَادُ
أَحِبُّ أَنْ يَتَأَدَّبُوا بِكَ وَيَتَخَرَّجُوا عَلَى يَدَيْكَ وَتَكُونَ
مَعِي غَيْرَ مُفَارِقٍ لِي، فَأَجَبْتُهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا اتَّصَلَتْ
الْأَيَّامُ بِالاجْتِمَاعِ سَأَلَنِي أَنْ أُؤَلِّفَ لَهُ كِتَابًا فِي مَعَانِي
الْقُرْآنِ فَالْفَتْهُ، فَجَعَلَهُ إِمَامًا لَهُ وَعَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا
فِي الْمَعَانِي، وَعَمَلَ الْفِرَاءُ كِتَابَهُ فِي الْمَعَانِي عَلَيْهِمَا،
وَقَرَأَ عَلَيَّ كِتَابَ سَيَّبُوِيهِ سِرًّا وَوَهَبَ لِي سَبْعِينَ
دِينَارًا"^(٥٩).

أَعْنِي بِتَسَامُحِ التَّقْلِيدِ ذَلِكَ النَّمَطُ مِنَ السُّلُوكِ
التَّسَامُحِيِّ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ صَاحِبُهُ بِمَظْهَرِ
الْمُتَسَامُحِ مَعَ الْآخَرِ الْمُخَالِفِ، وَالْمُحْتَوَى لَهُ مِنْ غَيْرِ
أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى التَّخَلِّيِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ مُقَرَّرَاتِ
مَذْهَبِهِ الْفِكْرِيِّ وَمُخَالَفَتِهِ وَالانْتِقَالَ كُلِّيًّا أَوْ جُزْئِيًّا
إِلَى غَيْرِهِ، فَهُوَ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِالتَّسَامُحِ الْأَخْلَاقِيِّ
السُّلُوكِيِّ الَّذِي لَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرًا حَقِيقِيًّا فِي الْفِكْرِ،
بَلْ يَبْقَى صَاحِبُهُ أَسِيرَ التَّقْلِيدِ وَلَا يَسْتَطِيعُ عَنْهُ
انْعِتَاقًا. وَقَدْ يَبْدُو هَذَا النَّمَطُ مِنَ التَّسَامُحِ لِبَعْضِهِمْ
كَمَا لَوْ أَنَّهُ تَنَوُّعٌ مِنْ تَنَوُّعَاتٍ مَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ هَرَبْرَتِ
مَارْكِيوزِ Herbert Marcuse مُصْطَلَحَ (التَّسَامُحِ
الْقَمْعِيِّ repressive tolerance) الَّذِي رَأَى
أَنَّ أَصْحَابَهُ وَإِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ قَبُولُ التَّسَامُحِ
مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ فَإِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا يُحَوِّلُونَهُ
بِبَرَاعَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى سِلَاحٍ يُحَافِظُونَ بِهِ عَلَى كِيَانِهِمْ
وَيَقْضُونَ بِهِ عَلَى كُلِّ مُعَارِضَةٍ حَقِيقِيَّةٍ^(٥٨). لَكِنِّي
أَرَى أَنَّ تَسَامُحَ التَّقْلِيدِ هَذَا، وَلَوْ أُرِيدَ بِهِ ذَلِكَ فِعْلًا
فِي بَدءِ الْأَمْرِ وَخَلَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْفِكْرِ، مُهْمٌ جَدًّا
بِوَصْفِهِ مُقَدِّمَةٌ لِتَقْبُلِ الْآخَرِ الْمُخَالِفِ وَتَمْهِيدًا لِبُعْدِ
تَسَامُحِيَّ أَرْقَى، عَلَيْهِ الْمَعُولُ، هُوَ تَسَامُحُ التَّجْدِيدِ
الَّذِي سَنَتَنَاوَلُهُ بِالْبَحْثِ بَعْدَ هَذَا الْبُعْدِ التَّسَامُحِيِّ
الْتَمْهِيدِيِّ.

وَالْوَاقِعُ أَنَّ بَغْدَادَ كَانَتْ قَدْ شَهِدَتْ مِنْذُ زَمَنِ
مُبَكَّرٍ بُدُورَ هَذَا التَّسَامُحِ، أَيِ تَسَامُحِ التَّقْلِيدِ، وَهِيَ
الْبُدُورُ الَّتِي أَفْضَتْ فِي نِهَائِيَةِ الْمَطَافِ إِلَى ظُهُورِ
نَمَائِجِ الْبُعْدِ التَّسَامُحِيِّ الْفِكْرِيِّ الَّتِي لَا تَجِدُ

(٥٨) يُنظَرُ: Marcuse, Herbert, "Repressive tolerance", p ٨١؛ و زكريا، فؤاد، هربرت ماركيزو: ٣٣.

(٥٩) الْحَمَوِيُّ، ياقوت، مُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ١٣٧٥/٣.

ففي هذه الرواية عدَّة وَقَفَاتٍ تَسْتَحِقُّ التَّأَمُّلَ.
فأولى هذه الوقفات ما ذكره الأَخْفَشُ من أَنَّهُ لَمَّا
خَطَّ الكِسَائِيَّ في المَسَائِلِ المِئَةِ التي أَلْقَاهَا عليه هَمَّ
تَلَامِيذُهُ الثَّلَاثَةُ المذكورونَ بالوثوبِ عليه وَضَرِيهَ.
وما مِن شَكِّ في أَنَّ هذا الموقِفَ مِنْهُمْ يَكْشِفُ عَن
وَسِيلَةٍ أُسَاسِيَّةٍ يَلْجَأُ إِلَيْهَا المَتَعَصِّبُونَ المُتَطَرِّفُونَ
في كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، هِيَ اسْتِخْدَامُ القُوَّةِ والعُنْفِ
في حَقِّ مُخَالِفِيهِمْ حينَ تُعَوِّزُهُمُ الحُجَّةُ وَيَنْقُضُهُمُ
الدَّالِيلُ. وَيُمْكِنُ الرُّجُوعُ بِهذهِ الوَسِيلَةِ إلى أَعْمَاقِ
التَّارِيخِ، بَلْ إلى بَدَايَةِ الوُجُودِ الإِنْسَانِيِّ على وَجْهِ
الأَرْضِ، حينَ وَاجَهَ قَابِيلُ أَخَاهُ هَابِيلَ بِقَوْلِهِ:
﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ (المائدة: ٢٧)، فَبَعْدَ أَنْ عَجَزَ عَن
مُفَارَعَتِهِ بِالْحُجَّةِ لَجَأَ إلى تَهْدِيدِهِ بِاسْتِخْدَامِ
العُنْفِ، وَهُوَ بِضَاعَةُ المَتَعَصِّبِينَ المُفْلِسِينَ إِنْسَانِيًّا
الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ حِيلَةً غَيْرَ الإِغْيَاءِ الأَخْرَ وَلَا يَفْهَمُونَ
لُغَةَ الحِوَارِ وَمَنْطِقَ المِسَاحَاتِ المُشْتَرَكَةِ.
وثَانِيَةُ الوقَفَاتِ تَتَعَلَّقُ بِمَنْعِ الكِسَائِيَّ أَصْحَابَهُ
مِنَ الوُثُوبِ على الأَخْفَشِ وَقِيَامِهِ وَمُعَانَقَتِهِ لَهُ
وإِجْلَاسِهِ إلى جَنِيهِ، احْتِفَاءً بِهِ وإِكْرَامًا لَهُ، وَزِيَادَتِهِ
على ذَلِكَ كُلِّهِ سُؤَالُهُ تَأْدِيبَ أولَادِهِ وَعَدَمَ مُفَارَقَتِهِ
إِيَّاهُ. فَلَا شَكَّ في أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ كَانَ لَهُ فِعْلُ السَّحْرِ
في احْتِوَاءِ الأَخْفَشِ وإِزَالَةِ مَا كَانَ يَعْتَمِلُ في نَفْسِهِ
مِنَ ضَغِينَةٍ وَرَغْبَةٍ في النَّارِ، بِمَا يُمَكِّنُ مَعَهُ وَصْفُ
سُلُوكِ الكِسَائِيَّ بِالتَّسَامُحِ الأَخْلَاقِيِّ الإِحْتِوَائِيِّ،
لِكِنَّهُ لَا يَرْقَى إلى أَنَّ يَكُونَ تَسَامُحًا فِكْرِيًّا حَقِيقِيًّا؛
لِأَنَّ صَاحِبَهُ بَقِيَ على تَعَصُّبِهِ لِمُعْطِيَاتِ مَذْهَبِهِ
وَلَمْ يَغْدُ مُسْتَعِدًّا لِلنُّزُولِ عَن شَيْءٍ مِنْهَا، فَهُوَ إِذَنْ
تَسَامُحٌ تَقْلِيدٌ لَا تَسَامُحٌ تَجْدِيدٌ.
أَمَّا الوقْفَةُ الثَّالِثَةُ فَهِيَ المُتَّصِلَةُ بِمَا ذَكَرَهُ الأَخْفَشُ
مِنَ قِرَاءَةِ الكِسَائِيَّ عَلَيْهِ كِتَابِ سَيَبَوِيهِ سِرًّا، وَهُوَ

مَا يُؤَكِّدُ بَقَاءَ جُذُورِ التَّعَصُّبِ لَدَى الكِسَائِيَّ
وَعَدَمَ انْعِتَاقِهِ مِنْ أُسْرِهِ؛ فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِقْرَارِهِ
ضَمْنِيًّا بِقِيَمَةِ كِتَابِ سَيَبَوِيهِ، مِنْ خِلَالِ قِرَاءَتِهِ
على الأَخْفَشِ، لَمْ يَجْرُؤْ على إِعْلَانِ ذَلِكَ وَالجَهْرِ بِهِ
إِمَّا خَشْيَةً لَوْمِ أَصْحَابِهِ وَتَقْرِيعِهِمْ لَهُ، وَإِمَّا كُرْهًا
لِلتَّرْوِيجِ لِنَحْوِ البَصْرِيِّينَ، وَإِمَّا لِكِلَا السَّبَبَيْنِ، وَكُلُّ
ذَلِكَ يَفْضُحُ دَخِيلَةَ تَعَصُّبِيَّةٍ وَطَوِيَّةٍ تَحْرِيْبِيَّةٍ.

٢. تَسَامُحُ اليَزِيدِيِّ مَعَ الكِسَائِيَّ:

عُرِفَ النَّحْوِيُّ البَصْرِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ اليَزِيدِيُّ (ت. ٢٠٢هـ)
بِمُنَاطَرَاتِهِ لِلكِسَائِيَّ في حَيَاتِهِ وَذَمَّهُ لَهُ
وهِجَائِهِ إِيَّاهُ، وَمِمَّا اشْتَهَرَ عَنْهُ قَوْلُهُ فِيهِ^(٦٠):

كُنَّا نَقِيسُ النُّحُوَ فِيمَا مَضَى

على لِسَانِ العَرَبِ الأَوَّلِ

فَجَاءَ أَقْوَامٌ يَقِيسُونَهُ

على لُغَى أَشْيَاحِ قَطْرُبُلِ

فَكُلُّهُمْ يَعْملُ في نَقْضِ مَا

بِهِ نَصَابُ الحَقِّ لَا يَأْتَلِي

إِنَّ الكِسَائِيَّ وَأَصْحَابَهُ

يَرْقُونَ في النُّحُوِ إلى أَسْفَلِ

وقَوْلُهُ فِيهِ أَيْضًا^(٦١):

أَفْسَدَ النُّحُوَ الكِسَائِيَّ

وَتَنَى ابْنَ غَزَالِهِ

وَأَرَى الأَحْمَرَ تَنِيْسًا

فَاعَلِفُوا التَّنِيْسَ النُّخَالَهُ

ويَبْدُو أَنَّ بَعْضَ خَلَاتِقِ اليَزِيدِيِّ كَانَ مَوْضِعَ

انْتِقَادِ البَصْرِيِّينَ أَيْضًا، إِذْ وَصَفَهُ الأَصْمَعِيُّ (ت. ٢١٦هـ)

بِأَنَّهُ كَانَ سَفِيهًا^(٦٢). وَقَدْ يَكُونُ مِصْدَاقُ

(٦٠) بُغِيَةُ الوُعَاةِ في طَبَقَاتِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحَاةِ:

١٦٣/٢-١٦٤.

(٦١) بُغِيَةُ الوُعَاةِ في طَبَقَاتِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحَاةِ: ١٦٤/٢.

(٦٢) يُنْظَرُ: الرُّبَيْدِيُّ، أَبُو بَكْرٍ، طَبَقَاتُ النُّحَوِيِّينَ

وَاللُّغَوِيِّينَ: ٦١.

ذلك ما روي من أن خفة أذهبت عنه تحفظه في حضرة الرشيد لظفر أصابه على الكسائي في مسألة جرت بينهما، إذ كشف رأسه وقال وهو في عمرة الشعور بنسوة الانتصار: "أنا أبو محمد". فقال له يحيى بن خالد: خطأ الكسائي مع حسن أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء أدبك، أتتكني قدام أمير المؤمنين وتكشف رأسك؟ فقال: إن حلاوة الظفر وعز الغلبة أذهبا عني التحفظ^(٦٣). لكن، مع كل ذلك، نجد اليزيدي يتناسى ما كان بينه وبين الكسائي من إحن ومواقف فيريه ومحمد بن الحسن الشيباني (ت. ١٨٩هـ) بعد موتيهما، إذ قال^(٦٤):

أسيئت على قاضي القضاة محمد
فأذريت دمي والفؤاد عميد
وأفزعتني موت الكسائي بعده
فكادت بي الأرض الفضاء تميد
هما عالمانا أوديا وتخرما

فما لهما في العالمين نديد
وقد روي أن الرشيد لما بلغته هذه الأبيات أثنى على قائمها اليزيدي وقال له: "يا يزيدي، لئن كنت تسيء بالكسائي في حياته لقد أحسنت بعد موته. وقيل: بل قال له: أحسنت يا بصري، لئن كنت تظلمه في حياته لقد أنصفته بعد موته"^(٦٥). فكان نص الرشيد على (إنصاف) اليزيدي بعد

(٦٣) العسكري، أبو أحمد، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحرير: ١٢٥.
(٦٤) الزبيدي، أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين: ١٤٢. ويُنظر: ابن مسعر، المفضل، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم: ١١٥؛ وابن الأباري، أبو البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدياء: ٧٢؛ والحموي، ياقوت، معجم الأدياء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ١٧٥٢/٤.
(٦٥) الحموي، ياقوت، معجم الأدياء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ١٧٥٢/٤.

أن خاطبه بقوله: (يا بصري) إلماعاً إلى ما نحن بصدد الكلام عليه من تسامح أخلاقي مع المخالف يستحق الإشادة والتنويه بلا ريب، لكنه لا يحمل صاحبه على التحلي عن بعض متبنياته الفكرية فضلاً عن ترك مذهبه كلياً.

ثانياً. تسامح التجديد:

أعني بتسامح التجديد ذلك النمط من الفكر التسامحي الذي يكون فيه صاحبه قادراً قدرة فعلية على التسامح الفكري مع الآخر المخالف، أي يكون مستعداً للتحلي عن مقررات مذهبه الفكري ومخالفته والانتقال كلياً أو جزئياً إلى غيره، فهو مباين للتسامح الأخلاقي السلوكي الذي لا يؤثر في الفكر، بل يبقى صاحبه أسير التقليد ولا يستطيع عنه انعتاقاً، كما سبق أن بينا.

وما من شك في أن هذا النمط من التسامح هو الذي عليه يعول وإليه يتطوع سبيلاً للخلاص من داء التعصب المذهبي المقيت؛ لأنه على المدى البعيد هو الذي يمكن من تقريب المفترقين تقريباً حقيقياً مبنياً على أسس فكرية واقتناع عقلية، ولا يقتصر على تقريبيهم تقريباً أخلاقياً لا يمس فكراً ولا يغير اقتناعاً، على أهمية هذا التقريب كما ذكرنا آنفاً.

ومن أهم الأمارات والقرائن المشيرة إلى هذا الضرب من التسامح أن نجد المنتسب إليه غير مريض عنه عند معظم المنتعصبين على اختلاف انتماءاتهم ومشاربيهم الفكرية، سواء منهم الذين يحسب عليهم فكراً والذين لا يعد منهم. وليس هذا بالمتبر للعجب؛ فاللامنتمي يعيش حالة اغتراب عن محيطه وبيئته، بل وسط أهله وأصحابه، في كل زمان ومكان. وفي الآتي أنموذجان من نماذج تسامح التجديد هذا.

١. تسامح ابن قتيبة الدينوري:

لا يعيى مطالع تراث ابن قتيبة (ت. ٢٧٦هـ)

الْوُقُوفُ عَلَى تَجَلِّيَاتِ شَخْصِيَّةٍ مُنْفَتِحَةٍ لِلْأَخْذِ بِكُلِّ قَوْلٍ رَاجِحٍ وَبِكُلِّ اخْتِيَارٍ مُقْنِعٍ، مِنْ غَيْرِ انْغْلَاقٍ عَلَى مَذْهَبٍ بَعِيْنِهِ وَلَا انْكِفَاءٍ عَلَى اتِّجَاهٍ دُونَ غَيْرِهِ. وَكَانَ انْفِتَاحُ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَعَدَمُ تَعَصُّبِهِ وَاضْحَيْنِ جِدًّا، بِحَيْثُ إِنَّ الْمُسْتَعْرَبَ الْفَرَنْسِيَّ جِيرَارَ لُوكُونْتِ Gérard Lecomte لَحِظَهُمَا فَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ ذُو (رُوحٍ تَوْفِيقِيَّةٍ) وَ(طَبِيعٍ تَصَالِحِيٍّ)، وَذَكَرَ عَدَدًا مِنْ الْأَدْلَةِ عَلَى ذَلِكَ^(٦٦)، وَأَبْرَزَهَا مَا سَاقَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابِهِ عُيُونُ الْأَخْبَارِ عَلَى لِسَانِ شَاهِدٍ مِنْ قَوْلِهِ: "رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ بِالْبَصْرَةِ عَلَى بَابِ مُوَيْسَ يَتَنَازَعَانِ فِي الْعَنْبِ النَّيْرُوزِيِّ وَالرَّازِقِيِّ: أَيُّهُمَا أَطِيبٌ؟ فَجَرَى بَيْنَهُمَا كَلَامٌ إِلَى أَنْ تَوَاتَبَا، فَفَطَعَ الْكُوفِيُّ إصْبَعِ الْبَصْرِيِّ، وَفَقَأَ الْبَصْرِيُّ عَيْنَ الْكُوفِيِّ، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ يَسِيرًا حَتَّى رَأَيْتُهُمَا مُتَصَافِيَيْنِ مُتَنَادِمَيْنِ"^(٦٧). فَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تُبْرِزُ بَجَلَاءٍ رَفَضَ ابْنُ قُتَيْبَةَ التَّحْيِيزَ لِأَحَدِ الطَّرْفَيْنِ، وَتُلَخِّصُ بَرَمِزِيَّةَ عَالِيَةِ ثَلَاثِيَّةِ (التَّعَصُّبِ/التَّعَصُّبِ الْمُضَادِّ/التَّسَامُحِ) الَّتِي أَقْمْنَا عَلَيْهَا دِرَاسَتَنَا الْحَالِيَّةَ اخْتِزَالًا لِمَا كَانَ بَيْنَ الْبَصْرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ مِنْ إِحْسِنٍ وَمِحْسِنٍ أَلْتِ لَاحِقًا إِلَى نَوْعٍ تَصَافٍ وَتَنَادُمٍ عَلَى أَيْدِي التَّوْفِيقِيِّينَ التَّصَالِحِيِّينَ أَمْثَالِ ابْنِ قُتَيْبَةَ.

وَأَوْضَحُ دَلَالَةَ عَلَى تَحَرُّرِهِ الْعِلْمِيِّ وَانْفِتَاحِهِ الْفِكْرِيِّ أَمْرَانِ.

أَمَّا أَحَدُهُمَا فَأَخَذَهُ الْعِلْمَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الرَّيَادِيِّ (ت. ٢٥٠هـ) وَأَبِي حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ (ت. ٢٥٠هـ) وَأَبِي الْفَضْلِ الرَّيَاشِيِّ (ت. ٢٥٧هـ) وَنَقَلَهُ عَنْهُمْ وَعَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْبَصْرَةِ^(٦٨)،

(٦٦) يُنْظَرُ: لُوكُونْتِ، جِيرَارِ، ابْنُ قُتَيْبَةَ الدِّيَنْوَرِيُّ أَدِيبُ الْفُقَهَاءِ وَقَبِيْهِ الْأَدْبَاءِ (م ٥٢٧٦هـ): حَيَاتُهُ، وَأَثَارُهُ، وَأَفْكَارُهُ (وَجْهَةٌ تُنْظَرُ غَرِيبَةً): ٦٢٥٦٢٥.

(٦٧) الدِّيَنْوَرِيُّ، ابْنُ قُتَيْبَةَ، عُيُونُ الْأَخْبَارِ: ٦٢/٢.

(٦٨) يُنْظَرُ: اللَّعْوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النَّحْوِيِّينَ: ١٣٦؛ وَالْقَفْطِيُّ، جَمَالُ الدِّينِ، إِنْبَاءُ الرُّوَاةِ عَلَى أَنْبَاءِ النُّحَاةِ: ١٤٤/٢.

وَنَقَلَهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَنِ الْكِسَائِيِّ وَالْفَرَّاءِ وَهُمَا مِنْ عُلَمَاءِ الْكُوفَةِ، وَعَدَمَ إِبْدَائِهِ شَيْئًا مِنَ التَّعَصُّبِ لِأَحَدٍ أَوْ لِمَذْهَبٍ^(٦٩). وَقَدْ جَرَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ نِقْمَةً مُتَعَصِّبِي الْبَصْرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ، فَفَاهَتِ السَّنَنُهَا بِالطَّعْنِ فِيهِ وَالْحَطُّ مِنْ مَنَزَلَتِهِ. فَمِنْ مَطَاعِنِ مُتَعَصِّبِي الْبَصْرِيِّينَ فِيهِ مَا ذَكَرَهُ أَبُو الطَّيِّبِ اللَّعْوِيُّ الْبَصْرِيُّ مِنْ أَخْذِهِ عَنِ أَبِي حَاتِمِ الرَّيَاشِيِّ الْبَصْرِيِّينَ وَتَخْلِيْطِهِ مَعَ ذَلِكَ بِحِكَايَاتِ عَنِ الْكُوفِيِّينَ لَمْ يَكُنْ أَخْذَهَا عَنِ الثَّقَاتِ بِرُزْعِمِهِ، وَتَسَرُّعِهِ فِي أَشْيَاءَ لَا يُحْسِنُهَا كِتَابَتُهُ فِي الْوَقْتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أُرِي بِهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، وَإِنْ كَانَ نَفَقَ بِهَا عِنْدَ الْعَامَّةِ وَمَنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ"^(٧٠).

وَمِنْ أَشَدِّ الْكُوفِيِّينَ طَعْنًا فِيهِ وَأَكْثَرِهِمْ نِيلًا مِنْهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْأَنْبَارِيِّ (ت. ٣٢٨هـ)، إِذْ كَانَ "يُنْسِبُهُ إِلَى الْعَفَلَةِ وَالْغَبَاوَةِ وَقِلَّةِ الْمَعْرِفَةِ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ قَرِيبًا مِنْ رُبْعِ مَا أَلْفَهُ فِي مُشْكِ الْقُرْآنِ"^(٧١).

وَأَمَّا الْأَمْرُ الْآخَرُ فَهُوَ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَعْمِلُ مُصْطَلَحَاتِ كِلَا الْمَذْهَبَيْنِ النَّحْوِيِّينَ الْبَصْرِيِّ وَالْكُوفِيِّ مِنْ غَيْرِ تَحَسُّسٍ أَوْ عَصَبِيَّةٍ. وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ إِثْبَاتُهُ فِي كِتَابِ تَأْوِيلِ مُشْكِ الْقُرْآنِ بَابًا عَنْوَانُهُ (بَابُ تَفْسِيرِ حُرُوفِ الْمَعَانِي وَمَا شَاكَلَهَا مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَنْصَرِفُ)^(٧٢)، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُصْطَلَحَ (حُرُوفِ الْمَعَانِي) مُصْطَلَحُ بَصْرِيٍّ يُعَبَّرُ عَمَّا يُعَبَّرُ عَنْهُ الْكُوفِيُّونَ بِمُصْطَلَحِ (الْأَدْوَاتِ)^(٧٣)، وَإِتْيَانُهُ بَعْدَهُ مُبَاشَرَةً بِبَابِ عَنْوَانِهِ (بَابُ دُخُولِ بَعْضِ

(٦٩) يُنْظَرُ: الْجُبُورِيُّ، عَبْدِ اللَّهِ، ابْنُ قُتَيْبَةَ وَالشُّعُوبِيَّةُ: ٢١٥.

(٧٠) اللَّعْوِيُّ، أَبُو الطَّيِّبِ، مَرَاتِبُ النَّحْوِيِّينَ: ١٣٦١٣٧.

(٧١) الْأَزْهَرِيُّ، أَبُو مَنْصُورٍ، تَهْذِيبُ اللَّعَّةِ: ٢٧/١.

(٧٢) الدِّيَنْوَرِيُّ، ابْنُ قُتَيْبَةَ، تَأْوِيلُ مُشْكِ الْقُرْآنِ: ٥١٧.

(٧٣) يُنْظَرُ: الْخَثْرَانِ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدٍ، مُصْطَلَحَاتُ النَّحْوِ الْكُوفِيِّ: ١١٩.

حُرُوفِ الصِّفَاتِ مَكَانَ بَعْضٍ^(٧٤)، وَمَعْرُوفٌ أَنَّ مُصْطَلَحَ (حُرُوفِ الصِّفَاتِ) مُصْطَلَحُ كُوفِيٍّ يُعْبَرُ عَمَّا يُعْبَرُ عَنْهُ الْبَصْرِيُّونَ بِمُصْطَلَحِي (حُرُوفِ الْجَزِّ) وَالظُّرُوفِ^(٧٥)، بِمَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ آتِفًا مِنْ "أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ يَعْتَمِدُ عَقْلِيَّتَهُ الْمُتَحَرَّرَةَ فِي كُلِّ مَا كَتَبَ فِي الْمَسَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ"^(٧٦).

٢. تَسَامُحُ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ كَيْسَانَ:

كَانَ ابْنُ كَيْسَانَ، كَابِنٌ قُتَيْبَةَ، مُتَسَامِحًا وَمُطَرِّحًا لِلتَّعَصُّبِ، وَلِذَلِكَ، جَعَلْتُهُمَا الدُّكْتُورَةَ خَدِجَةَ الْحَدِيثِيَّ، رَحِمَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فِي خَانَةِ وَاحِدَةٍ مِنْ حَيْثُ التَّصْنِيفُ الْمَذْهَبِيُّ النَّحْوِيُّ، أَيْ خَانَةِ (مَنْ خَلَطَ الْمَذْهَبَيْنِ) مِنْ بَغْدَادِيٍّ الْمَذْهَبِ^(٧٧)، دُونَ الْخَانَتَيْنِ الْبَغْدَادِيَّتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ اللَّتَيْنِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَصْحَابُهُمَا التَّخَلُّصَ مِنْ رِبْقَةِ التَّعَصُّبِ وَالْفِكَاكِ مِنْ أَسْرِ التَّحْيِيزِ، أَعْنِي بِهِمَا خَانَةٌ مِنْ مَالٍ بِهِ الْهُوَى مِنْهُمْ إِلَى الْبَصْرِيِّينَ وَخَانَةٌ مِنْ شَدَّةِ التَّحَرُّبِ مِنْهُمْ إِلَى الْكُوفِيِّينَ.

وَقَدْ شَهِدَ مُؤَرِّخُو النَّحْوِ وَمُتَرَجِمُو أَهْلِهِ لِابْنِ كَيْسَانَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَالذِّينِ، وَبِالْوَرَعِ وَالْجُودِ وَالْكَرَمِ وَالْأَدَبِ وَالْعَدْلِ وَالتَّوَاضُعِ وَالْحِشْمَةِ^(٧٨)، وَكُلُّ ذَلِكَ رَشْحَهُ لِيَكُونَ بَعِيدًا عَنِ التَّعَصُّبِ الذَّمِيمِ. إِذْ قَالَ عَنْهُ الْقَفْطِيُّ (ت. ٦٢٤هـ): "وَكَانَ يَحْفَظُ مَذْهَبَ الْبَصْرِيِّينَ فِي النَّحْوِ وَالْكُوفِيِّينَ؛ لِأَنَّهُ أَخَذَ عَنِ الْمُبَرِّدِ وَتَعَلَّبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُجَاهِدٍ

الْمُقَرَّرِيُّ يَقُولُ: أَبُو الْحَسَنِ بْنُ كَيْسَانَ أَنْحَى مِنَ الشَّيْخَيْنِ - يَعْنِي ثَعْلَبًا وَالْمُبَرِّدَ. وَمَرْجَ النَّحْوِيِّينَ، فَأَخَذَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ صِحَّتَهُ، وَاطَّرَدَ لَهُ قِيَاسُهُ، وَتَرَكَ التَّعَصُّبَ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى الْآخَرِ"^(٧٩).

وَمِنْ أَمَارَاتِ صِدْقِ تَسَامُحِهِ التَّجَدِيدِيُّ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْأَخْذِ بِبَلَا غَضَاضَةٍ مِنْ كُلِّ مِنَ الْمَذْهَبَيْنِ الْبَصْرِيِّ وَالْكُوفِيِّ مَا يَرَاهُ الْحَقُّ فِي بَابِهِ، أَمَارَتَانِ أَسَاسِيَّتَانِ.

أَمَّا إِحْدَاهُمَا فَهِيَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اضْطَرَبُوا فِي نِسْبَتِهِ إِلَى أَحَدِ الْمَذْهَبَيْنِ، فَنَسَبَهُ الرَّجَاجِيُّ (ت. ٣٣٧هـ)، وَهُوَ أَحَدُ تَلَامِيذِهِ، إِلَى الْكُوفِيِّينَ^(٨٠)، فِي حِينِ عَدُهُ السَّيرَافِيُّ (ت. ٣٦٨هـ) مِنْ بَصْرِيِّ أَصْحَابِ الْمُبَرِّدِ مَعَ إِقْرَارِهِ بِأَنَّهُ كَانَ يَخْلُطُ الْمَذْهَبَيْنِ^(٨١)، وَذَكَرَ الزُّبَيْدِيُّ (ت. ٣٧٩هـ) أَنَّهُ "كَانَ بَصْرِيًّا كُوفِيًّا، يَحْفَظُ الْقَوْلَيْنِ وَيَعْرِفُ الْمَذْهَبَيْنِ، وَكَانَ أَخَذَ عَنِ ثَعْلَبِ وَالْمُبَرِّدِ، وَكَانَ مَيْلُهُ إِلَى مَذْهَبِ الْبَصْرِيِّينَ أَكْثَرَ"^(٨٢)، فِي حِينِ قَالَ الْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مَسْعَرٍ (ت. ٤٤٢هـ) إِنَّهُ "كَانَ إِلَى مَذْهَبِ الْكُوفِيِّينَ أَمِيلًا"^(٨٣).

وَقَدْ جَرَّ عَلَيْهِ عَدَمُ وُضُوحِ انْتِسَابِهِ إِلَى أَحَدِ الْمَذْهَبَيْنِ الْمُتَصَارِعَيْنِ وَيَلَاتِ ذَمُّ مُتَعَصِّبِي النَّحْوِيِّينَ إِيَّاهُ، إِذْ "كَانَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْأَنْبَارِيِّ شَدِيدَ التَّعَصُّبِ عَلَى ابْنِ كَيْسَانَ وَالتَّنْقِصِ لَهُ،

(٧٩) الْقَفْطِيُّ، جَمَالَ الدِّينِ، إِبْنَاءُ الرُّوَاةِ عَلَى أَنْبَاءِ النُّحَاةِ: ٥٧٥٨/٣.

(٨٠) يُنْظَرُ: الرَّجَاجِيُّ، أَبُو الْقَاسِمِ، الْإِبْرَاهِيمِيُّ فِي عِلَالِ النَّحْوِ: ٧٩.

(٨١) يُنْظَرُ: السَّيرَافِيُّ، أَبُو سَعِيدٍ، أَخْبَارُ النَّحْوِيِّينَ الْبَصْرِيِّينَ: ٨٠٨١.

(٨٢) الزُّبَيْدِيُّ، أَبُو بَكْرٍ، طَبَقَاتُ النَّحْوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ: ١٧٠١٧١.

(٨٣) ابْنُ مَسْعَرٍ، الْمُفَضَّلُ، تَارِيخُ الْعُلَمَاءِ النَّحْوِيِّينَ مِنَ الْبَصْرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ: ٥١.

(٧٤) الدِّيَّانِيُّ، ابْنُ قُتَيْبَةَ، تَأْوِيلُ مُشْكِلِ الْقُرْآنِ: ٥٦٥.

(٧٥) يُنْظَرُ: الْخَثْرَانُ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدٍ، مُصْطَلَحَاتُ النَّحْوِ الْكُوفِيِّ: ٧٢.

(٧٦) الْجُبُورِيُّ، عَبْدِ اللَّهِ، ابْنُ قُتَيْبَةَ وَالشُّعُوبِيَّةُ: ٢١٦.

(٧٧) يُنْظَرُ: الْحَدِيثِيُّ، خَدِجَةَ، الْمَدَارِسُ النَّحْوِيَّةُ: ٢٢٣٢٢٤.

(٧٨) يُنْظَرُ: الْحُبَّةُ، مُحَمَّدٌ، مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ لِأَبِي الْحَسَنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ كَيْسَانَ بْنِ إِبْرَاهِيمِ النَّحْوِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٢٠هـ: ٤٤.

وكانَ يَقُولُ: خَلَطَ، فَلَمْ يَضِبْطْ مَذَهَبَ الكُوفِيِّينَ ولا مَذَهَبَ البَصْرِيِّينَ" (٨٤). وكأَنَّي بِابْنِ كَيْسَانَ يَتَمَثَّلُ، وَقَدْ سَمِعَ ذَمَّ مَنْ ذَمَّهُ لِعَدَمِ تَعَصُّبِهِ، قَوْلَ البُحْتَرِيِّ (ت. ٢٨٤هـ) (٨٥):

إِذَا مَحَاسِنِي اللّاتِي أُدِلُّ بِهَا

كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ
وَأَمَّا الأَمَارَةُ الأُخْرَى الَّتِي تَشْهَدُ لَهُ بِبُعْدِهِ عَنِ التَّعَصُّبِ فَاسْتِعْمَالُهُ فِي مُصَنَّفَاتِهِ، بِكُلِّ تَحَرُّرٍ، مَا اخْتَارَهُ البَصْرِيُّونَ وَالكُوفِيُّونَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ مِنْ تَرْجِيحَاتٍ وَمُصْطَلَحَاتٍ جَنَبًا إِلَى جَنَبٍ مِنْ غَيْرِ اسْتِشْكَالٍ لِذَلِكَ أَوْ تَحَسُّسٍ. وَأَكْتَفَى هُنَا بِإِيرَادِ فِقْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ كَلَامٍ لَهُ فِي أَحَدِ مُصَنَّفَاتِهِ يَظْهَرُ فِيهِ مِصْدَاقُ ذَلِكَ ظُهُورًا جَلِيًّا.

إِذْ جَاءَ فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَ عَمْرٍو بْنِ كَلْثُومِ التَّغْلِبِيِّ:

وَنُوجِدُ نَحْنُ أَمْنَعُهُمْ ذِمَارًا

وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينًا

بَعْدَ قَوْلِهِ فِي البَيْتِ السَّابِقِ:

مَتَى نَعْقِدُ قَرِينَتَنَا بِحَبْلِ

نَجْدَ الحَبْلِ أَوْ نَقِصِ القَرِينَا

قَوْلُهُ: "لَكَ فِي (نُوجِدَ) الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالجَزْمِ. مَنْ جَزَمَهُ جَعَلَهُ نَسَقًا عَلَى جَوَابِ الجَزَاءِ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ (نَجْدًا) أَوْ (نَقِصَ) وَ(نُوجِدَ). وَمَنْ نَصَبَهُ نَصَبَهُ عَلَى الصَّرْفِ وَإِضْمَارِ (أَنَّ). وَمَنْ رَفَعَهُ رَفَعَهُ عَلَى الإِبْتِدَاءِ" (٨٦).

فَقَدْ انطَوَتْ هَذِهِ الفِقْرَةُ مِنْ كَلَامِهِ عَلَى اخْتِيَارَاتٍ وَمُصْطَلَحَاتٍ كُوفِيَّةٍ وَبَصْرِيَّةٍ فِي الوَقْتِ

نَفْسِهِ. فَمُصْطَلَحُ (النَّسَقِ)، فِي قَوْلِهِ: "مَنْ جَزَمَهُ جَعَلَهُ نَسَقًا"، مُصْطَلَحُ كُوفِيٍّ مُعَبَّرٌ عَمَّا يُعْبَرُ عَنْهُ مُصْطَلَحُ (العَطْفِ) البَصْرِيِّ (٨٧). وَكَذَلِكَ مُصْطَلَحُ (الصَّرْفِ)، فِي قَوْلِهِ: "وَمَنْ نَصَبَهُ نَصَبَهُ عَلَى الصَّرْفِ"، مُصْطَلَحٌ لِلْكُوفِيِّينَ يَعْنُونَ بِهِ "العَدَلَ بِلَفْظٍ مَا بَعْدَ الوَاوِ عَنِ مُوَافَقَةِ مَا قَبْلَهُ فِي إِعْرَابِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُ فِي المَعْنَى ... فَلَمَّا خَالَفَهُ عَدَلَ عَنِ مُوَافَقَتِهِ وَصَّرَفَ ... فَالصَّرْفُ هُوَ العَامِلُ عِنْدَ الكُوفِيِّينَ" (٨٨)، فِي مُقَابَلَةِ مَذَهَبِ البَصْرِيِّينَ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ النَّصْبَ لِمَا بَعْدَ الوَاوِ إِنَّمَا يَكُونُ بِ(أَنَّ) مُضْمَرَةً وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ كَيْسَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً فَنَصَّ عَلَى أَنَّ النَّصْبَ عَلَى الصَّرْفِ بِإِضْمَارِ (أَنَّ)، مُلَفِّقًا بِذَلِكَ بَيْنَ المَذَهَبَيْنِ الكُوفِيِّ وَالبَصْرِيِّ تَلْفِيحًا وَاضِحًا جَعَلَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ إِبرَاهِيمُ البَنَّا يَعْقُبُ عَلَى فِعْلِهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "المَعْرُوفُ أَنَّ الخِلَافَ أَوْ الصَّرْفَ هُوَ النَّاصِبُ كَمَا يَقُولُ أَصْحَابُ هَذَا المُصْطَلَحِ لِ(أَنَّ) مُضْمَرَةً كَمَا يَقُولُ البَصْرِيُّونَ. وَيَبْدُو أَنَّ ابْنَ كَيْسَانَ قَدْ تَأَثَّرَ بِدِرَاسَتِهِ عَلَى شُيُوخِ البَصْرَةِ وَالكُوفَةِ، فَجَمَعَ بَيْنَ إِعْرَابِ الكُوفِيِّينَ وَالبَصْرِيِّينَ" (٨٩).

خَاتِمَةُ البَحْثِ:

قُدِّرَ لِبَغْدَادَ، مَدِينَةِ السَّلَامِ، أَنْ تَكُونَ المَسْرَحَ الَّذِي شَهِدَ التَّلَاقِي التَّارِيخِيَّ بَيْنَ المَذَهَبَيْنِ النُّحُويِّينَ المُتَنَافِسَيْنِ البَصْرِيِّ وَالكُوفِيِّ، وَالبَيْئَةَ الَّتِي أَتَاحَتْ أَجْوَاؤُهَا العِلْمِيَّةَ وَالثَّقَافِيَّةَ وَالاِجْتِمَاعِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ

(٨٨) ابْنُ كَيْسَانَ، أَبُو الحَسَنِ، مُعَلِّقُهُ عَمْرٍو بْنُ كَلْثُومٍ بِشْرَحِ أَبِي الحَسَنِ بْنِ كَيْسَانَ (هَامِشُ المُحَقِّقِ (١): ٩٣. وَيُنظَرُ: الخَثْرَانُ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدٍ، مُصْطَلَحَاتُ النُّحُو الكُوفِيِّ: ١٠٥.

(٨٩) ابْنُ كَيْسَانَ، أَبُو الحَسَنِ، مُعَلِّقُهُ عَمْرٍو بْنُ كَلْثُومٍ بِشْرَحِ أَبِي الحَسَنِ بْنِ كَيْسَانَ (هَامِشُ المُحَقِّقِ (٢): ٩٣.

(٨٤) الرُّبَيْدِيِّ، أَبُو بَكْرٍ، طَبَقَاتُ النُّحُويِّينَ وَالأَلْغُويِّينَ: ١٧١.

(٨٥) البُحْتَرِيُّ، أَبُو عُبَادَةَ، دِيْوَانُ البُحْتَرِيِّ: ٣٠٨/٢.

(٨٦) ابْنُ كَيْسَانَ، أَبُو الحَسَنِ، مُعَلِّقُهُ عَمْرٍو بْنُ كَلْثُومٍ بِشْرَحِ أَبِي الحَسَنِ بْنِ كَيْسَانَ: ٩٣.

(٨٧) يُنظَرُ: الخَثْرَانُ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدٍ، مُصْطَلَحَاتُ النُّحُو الكُوفِيِّ: ٧٧.

خمودًا نسبيًا لِنَارِ التَّحَرُّبِ المَقِيَّتِ التي كَانَ وَقودَهَا التَّعَصُّبُ وَالتَّعَصُّبُ المُضَادُّ بَيْنَ المَذْهَبَيْنِ، وَظُهُورًا لِمَلَامِحِ حَالَةِ تَوْفِيقِيَّةٍ أَقْرَّتْ تَسَامُحًا تَقْلِيدِيًّا أَخْلَاقِيًّا مُتَبَادِلًا مَهَّدَ لِبُزُوعِ فَجْرِ تَسَامُحٍ تَجْدِيدِيٍّ عِلْمِيٍّ سَمَحَ لِلْمُتَحَلِّينَ بِهِ بِأَنْ يَنْخَيَّرُوا مِنْ أَقْوَالِ الفَرِيقَيْنِ مَا رَأَوْا صَوَابَهُ وَأَنْ يَطْرِحُوا مِنْهَا مَا رَجَحَ عِنْدَهُمْ خَطُؤُهُ.

عَلَى أَنَّ التَّسَامُحَ، بِنَوْعِيهِ، ظَلَّ أَهْلُهُ وَالمُنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ قَلِيلِينَ قَلَّةً ظَاهِرَةً بِالقِيَاسِ إِلَى الكَثْرَةِ الكَاثِرَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ، مِصْدَاقًا لِحَدِيثِ الرَّسُولِ الكَرِيمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي حَكَمَ فِيهِ بِغُرْبَةِ قِيَمِ الإِسْلَامِ الحَقِيقِيَّةِ التي يَنَامِزُ أَصْحَابُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ بِتَبْنِيهِمْ سَبِيلَ الصَّلَاحِ فِي الذَّاتِ وَلَوْ فَسَدَ النَّاسُ، وَطَرِيقَ الإِصْلَاحِ فِي المُجْتَمَعِ وَلَوْ أَفْسَدَ النَّاسُ، وَمِنْ ثَمَّ نَعَتَهُمْ بِـ(الغُرَبَاءِ) فِي قَوْلِهِ: "إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ"، قِيلَ: "وَمَنْ هُمْ يَا رَسولَ اللهِ؟"، قَالَ: "الَّذِينَ يَصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ" (٩٠)، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: "الَّذِينَ يَصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ" (٩١).

والمؤمل من هذا البحث أن يروى مساحة علمية اضطلعت فيها بغداد في أزمنة غابرة بمهمة إشاعة التسامح وإذاعته بعد كساد سوقه وركودها بفعل التعصب والتعصب المضاد في بيئتي البصرة والكوفة، ليكون ذلك باعنا لأهلها الآن على أن يعيدها، كما عرفها التاريخ، حاضنة توفيقية بين المذاهب الفكرية المختلفة وبيئة تسامحية أخلاقية وعلمية تعدل المسار، وتقوم الخلل، وتقارب بين وجهات النظر. وما ذلك بمستغرب على مدينة

(٩٠) هذه رواية الأجزبي (ت. ٥٣٦٠هـ) في كتابه الغرباء: ٣١.

(٩١) هذه رواية الترمذي (ت. ٥٢٧٩هـ) في كتابه جامع الترمذي: ح ٢٦٣٠، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا.

قَرِنَ اسْمُهَا بِالسَّلَامِ وَالأَمْنِ وَالتَّطْمَئِنَّةِ فِدَاعَ بَيْنِ النَّاسِ تَلْقِيْبُهَا بِـ(مَدِينَةِ السَّلَامِ).

مَسْرَدُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ:

١. العَرَبِيَّةُ:

- القُرْآنُ الكَرِيمُ.

- الأَجْرِيُّ، أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ (ت. ٣٦٠هـ). تحقيق الدكتور مأمون محمود ياسين، عجمان - الشارقة: مؤسسه علوم القرآن، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- الأَحْمَرُ، خَلْفَ (ت. ١٨٠هـ). مُقَدِّمَةٌ فِي النُّحُو. تحقيق عز الدين التَّنُوخِي، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د. ط.، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

- الأَزْهَرِيُّ، أَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ (ت. ٣٧٠هـ). تَهْذِيبُ اللُّغَةِ. تحقيق محمد عوض مرعب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ٢٠٠١م.

- ابْنُ الأَنْبَارِيِّ، أَبُو البَرَكَاتِ (ت. ٥٧٧هـ):

١. الإِنصَافُ فِي مَسَائِلِ الخِلافِ بَيْنَ البَصْرِيِّينَ وَالكُوفِيِّينَ. تحقيق الدكتور جودة مبروك مبروك، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ١، د. ت.

٢. نَزْهُةُ الأَلْبَاءِ فِي طَبَقَاتِ الأَدْبَاءِ. تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، بغداد: مكتبة الأندلس، ط ٢، ١٩٧٠م.

- الأَنْصَارِيُّ، ابْنُ هِشَامَ (ت. ٧٦١هـ). مُغْنِي اللِّبِيبِ عَنِ كُتُبِ الأَعَارِيبِ. تحقيق الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د. ط.، د. ت.

- إيسوب. حكايات إيسوب. ترجمة عادل مصطفى، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي، د. ط.، ٢٠١٩م.

- البُحْتَرِيُّ، أَبُو عُبَادَةَ (ت. ٢٨٤هـ). ديوان البُحْتَرِيِّ. تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة: دار المعارف، د. ط.، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

- بدوي، عبد الرحمن. موسوعة الفلسفة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٨٤م.

- الترمذِي، أبو عيسى مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى (ت. ٢٧٩هـ). جامع الترمذِي. الرياض: بيت الأفكار الدولية، د.ط.، د.ت.
- الجبّة، مُحَمَّدٌ محمود مُحَمَّدٌ صبري. معاني القرآن وإعرابه لأبي الحسنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ كَيْسَانَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ النَّحْوِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٢٠هـ. القاهرة: مكتبة الإمام البخاري، ط١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٣م.
- الجبورِي، عبد الله:
١. أبو جعفرِ الرُّوَّاسِي: نَحْوِيٌّ مِنَ الكَوْفَةِ. بغداد: وزارة التّعليمِ العالِي والبعثِ العِلْمِي - الجامعةِ المستنصرِيّة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٢. ابنُ قُتَيْبَةَ والشُّعُوبِيَّة. بغداد: دارُ الشُّؤُونِ الثَّقَافِيَّةِ العامّة، ط١، ١٩٩٠م.
- الحدِيثِي، خديجة. المدارسُ النَّحْوِيَّة. إربد: دار الأمل، ط٣، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الحَمَوِي، ياقوت (ت. ٦٢٦هـ). معجمُ الأديباء: إرشادُ الأريبِ إلى معرفةِ الأديب. تحقيقُ الدُّكتورِ إحسانِ عَبَّاس، بيروت: دار الغربِ الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م.
- الخثران، عبد الله بن حمد. مصطلحاتُ النَّحْوِ الكوفيّ: دراستُها وتَحْدِيدُ مدلولاتِها. القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- الحَظِيْبُ البَغْدَادِي، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ ثَابِتٍ (ت. ٤٦٣هـ). تاريخُ مَدِينَةِ السَّلَامِ وأخبارُ مَحَدِّثِهَا وَذِكْرُ قُطَّانِهَا العُلَمَاءِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا وَوَارِدِهَا. تحقيقُ الدُّكتورِ بِشَّارِ عَوَّادِ معروف، بيروت: دار الغربِ الإسلامي، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الذَّيْنَوْرِي، ابنُ قُتَيْبَةَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمٍ (ت. ٢٧٦هـ):
١. تَأْوِيلُ مُشْكِلِ الْقُرْآن. تحقيقُ السَّيِّدِ أَحْمَدِ صقر، بيروت: دار الكتبِ العِلْمِيَّة، ط٣، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٢. عُيُونُ الأَخْبَار. بيروت: دار الكتبِ العِلْمِيَّة، د.ط.، ١٤١٨هـ.
- الذَّهَبِي، شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عُثْمَانَ (ت. ٧٤٨هـ). ميزانُ الاعتدالِ فِي نَقْدِ الرُّجَال. تحقيقُ عادل
- أحمد عبد الموجود وعليّ محمّد معوّض، بيروت: دار الكتبِ العِلْمِيَّة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- رَوَّاي، صلاح. النَّحْوُ العَرَبِيّ: نَشَأَتُهُ، تَطَوُّرُهُ، مَدَارِسُهُ، رِجَالُهُ. القاهرة: دار غريب، د.ط.، ٢٠٠٣م.
- الرُّبَيْدِي، أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ (ت. ٣٧٩هـ). طَبَقَاتُ النَّحْوِيَّيْنَ وَاللُّغَوِيَّيْنَ. تحقيقُ مُحَمَّدِ أَبُو الفضلِ إِبْرَاهِيم، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط١، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.
- الرَّجَاجِي، أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ (ت. ٣٣٧هـ):
١. الإيضاحُ فِي عِلَلِ النَّحْوِ. تحقيقُ الدُّكتورِ مازنِ المَبَارِك، بيروت: دار النَّفَائِس، ط٢، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
٢. مَجَالِسُ العُلَمَاء. تحقيقُ عبدِ السَّلَامِ مُحَمَّدِ هَارُونَ، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- زكريّا، فؤاد. هربرت ماركيوز. المملكة المتّحدة: مؤسّسة هندواي، د.ط.، ٢٠٢٠م.
- السَّجِسْتَانِي، أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانَ بْنِ الأَشْعَثِ (ت. ٢٧٥هـ). سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ. الرِّيَاض: بيت الأفكار الدولية، د.ط.، د.ت.
- السَّيرَاقِي، أَبُو سَعِيدِ الحَسَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (ت. ٣٦٨هـ). أَخْبَارُ النَّحْوِيَّيْنَ البَصْرِيَّيْنَ. تحقيقُ طه مُحَمَّدِ الزَّيْنِي ومُحَمَّدِ عبدِ المنعمِ خَفَاجِي، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
- السَّيَوْتِي، جَلالُ الدِّينِ (ت. ٩١١هـ). بَغِيَّةُ الوُعَاة فِي طَبَقَاتِ اللُّغَوِيَّيْنَ والنُّحَاة. تحقيقُ مُحَمَّدِ أَبُو الفضلِ إِبْرَاهِيم، صيدا - بيروت: المكتبة العصريّة، د.ط.، د.ت.
- سيّد عبد الله، معتز. الاتجاهاتُ التَّعْصِيبِيَّة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د.ط.، ١٩٨٩م.
- صليبا، جميل. المُعْجَمُ الفَلَسَفِيّ. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٧١م.
- الطَّنْطَاوِي، مُحَمَّد. نَشَأَةُ النَّحْوِ وتاريخُ أَشْهُرِ النُّحَاة. ليبيا: جامعة السَّيِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ السَّنُوسِيّ الإسلاميّة، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.
- العَسْكَرِي، أَبُو أَحْمَدَ الحَسَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ (ت. ٣٨٢هـ). شَرْحُ مَا يَقَعُ فِيهِ التَّصْحِيفُ والتَّحْرِيف. تحقيقُ

الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ط ٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- المطوع، يوسف أحمد. جهود علماء النحو في القرن الثالث الهجري. الكويت: مطبعة حكومة الكويت، د.ط.، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت. ٤٣٨هـ). الفهرست. تحقيق إبراهيم رمضان، بيروت: دار المعرفة، ط ٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- الوردی، علي. وعاظ السلاطين. لندن: دار كوفان، ط ٢، ١٩٩٥م.

٢. الأجنبيّة:

- Marcuse, Herbert, "Repressive tolerance", in Robert Paul Wolf, Barrington Moore, Jr., and Herbert Marcuse, A Critique of Pure Tolerance, Beacon Press, Boston, 1965.

- Nadeau, Jean-Benoit and Barlow, Julie, Sixty Million Frenchmen Can't Be Wrong: Why We Love France But Not The French, Source-books, Inc., Naperville, Illinois, 2003.

عبد العزيز أحمد، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط ١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

- فايل، جوتهود. مدخل إلى كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف. ترجمة بشير عبد الغني بركات، دمشق - بيروت: دار المقتبس، ط ١، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت. ١٧٥هـ):

١. كتاب العين. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط.، د.ت.

٢. المنظومة النحوية. تحقيق الدكتور أحمد عفيفي، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ٢٠٠٣م.

- الفقهي، أبو العيد الطاهر، "أخطاء العلماء بين الكبرياء والتعصب والعقلة". بحث في مجلة عالم الكتب السعودية، المجلد ٢٠، العدد ٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ١٩٥-٢١٥.

- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت. ٦٤٦هـ). إنباه الرواة على أنباه النحاة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

- اللغوي، أبو الطيب (ت. ٣٥١هـ). مراتب النحويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ط.، د.ت.

- لوكونت، جيرار. ابن قتيبة الدينوري أديب الفقهاء وفقه الأديب (م ٢٧٦هـ): حياته، وآثاره، وأفكاره (وجهة نظر غربية). ترجمة الدكتور محمود المقداد، دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية، د.ط.، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

- المخزومي، مهدي. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. بيروت: دار الزائد العربي، ط ٣، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

- ابن مسعر، الفضل بن محمد (ت. ٤٤٢هـ). تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم. تحقيق